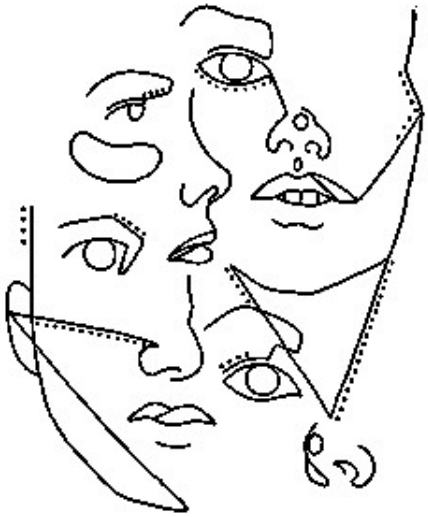

إنعاش

محمد عبد الغني

إذ عاش

تأليف: محمد عبد الغني

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

تصحيح لغوي: محمود سلام أبو مالك

تنسيق داخلي: ضياء فريد

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع: 2017/27254

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٨_٩٧٧_٧٦٤_٠٩٢_٣

خلف الجامع الأزهر ـ بجوار مسجد عليش

ت: ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ ـ ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ ـ

٠١١١٤٢١٢٨٠٥

Email:elmarefa@hotmail.com

MoAbdulghanie

إن عاش

محمد عبد الغني

إهداء

إلى المُرابطين على ثغور الأمل، إلى الحالمين بغدٍ أفضل رغم كل الصعوبات والضغوط، إلى الأحلام المطوية في رُكام الماضي، علّه يشفي شيئًا من غليل، أو يحيي شيئًا من أمل.

إهداء خاص

إلى أمي وأبي وسعيهما الدائم إلى جعلي نبتة طيبة.

إلى روحٍ سكنتنا وذهبت فأصبحت عالقة في مكانٍ بعيد يستحيلُ الوصول إليها.

نادرًا ما تجد كتابًا يخلو من خطأ مطبعي، مهما بلغ مؤلفه في مراجعته، إنها دعوة للمراجعة الدائمة.

د. سلمان العودة

كتبت هذه الكلمات وأنا أمر بمرحلة صعبة جدًّا في حياتي، مرحلة الوقوف عند مفترق الطرق، مرحلة الخوف من أخذ الطريق الخطأ، والخوف الأكبر من إدراك هذا الخطأ في مرحلة متأخرة، فكانت النتيجة أفكارًا مشتتة وحياة يملؤها التيه والخوف، ولكن هذه المحاولة بفضل الله أعادتني من جديد إلى الطريق لأكمل السير.

إنعاش الإنـ عاش

بقلم رشيق، ولغة هائمة، بنفس شغوفة بالمعنى، وروح تحاول البحث عن روحها، تأتي كلماته، إنعاشًا للحرف من أن ينحرف، وإعادة نبض لخارطة المسير، ونفخة إنقاذ لأكبادنا الممزّعة.

تحترق دموعنا في قراءة أسطره، ونجد أنفسنا مأخوذين ذاهلين عن أنفسنا برونق الفكرة، وأناقة الأسلوب.

عفْويّة ويوميّة، تأتي خواطره، نسأل أنفسنا ومرايانا وبريق أعيننا كيف غبنا وتغافلنا عن الجوهر؟ كيف انشغلنا بالعَرَض وبما لا يُعوّل عليه؟ كيف ضعنا في دوّامة الفناء، تقاذفتنا الأيّام لُهاثًا وراء السّبب، أجوافنا يملؤها الصّدى، ولا ندى يرويها؟

هل كنّا بحاجة إلى رحيل حبيب حتى نصحو، أو صفعة قدرٍ حتّى نستيقظ، أو صوت مبحوح حتى نلتفت وراءنا لنجد أنّا تركنا أنفسنا ورحلنا عنها؟!

كيف تستطيع مثل هذه الكلمات أن تُلملم شتاتنا وتجمّع شظايا أفئدتنا؟! وتوقظنا من غمرة الانغماس في اللا شيء واللا جدوى؟!

ثلاث صعقات كهربائية، كي تعيد أرواحنا للحياة، وتنعش ذلك الجسد المتهالك فيّ لاستقبال الحبيبة.

أولاها: تأمّلات في النّفس، وارتداد للأصل، وسموٌّ عن الطّين، وضنًى في اللحاق بآخر رمق للحياة، بحثًا ولُهاثًا ومراوغةً وتعنِّيًا وتشظِّيًا وشتاتًا وعذابات، كي تأتي تلك الحبيبة الحاضرة الغائبة، كي تُشرق تلك المنارة الّتي يحيطها الرّماد، كي ينبعث الطّائر الجريح، كي تلتهب النّار الدفينة، فتتوازن الخطى ويبتسم الثّغر ويمتلئ الصّدر بهواء الرّضى.

ثانيها: بنفسج وريحان من بستان النّبوّة. يقول لنا: «لا تحسبوه شرًّا لكم»، تجلو أمامنا بشريّة الأنبياء وإنسانيتهم أمام النّوائب، تزيل عن أعيننا غبش القداسة والتّمجيد والتّوقير، لترينا أن أعظم ما في الأنبياء، أنّهم كانوا يومًا مثلنا، بشرًا.

ثالثها: ملاذ وسكينة، انعتاق وارتقاء، تخلية وتحلية، في لحظة صدق وشفافية وتحليق، تتصل الأرض بالسّماء في سجدة، ويتعلّق التراب بدِيَم الفيض في دعوة، ويلتقي الطّفل والشّيخ في صفّ الصلاة.

هزّتني كلماتك، وداعبت أعماقي، وألقت حجرًا في بركة نفسي الرّاكدة، لأتنبّأ لك بجديدٍ أكثر عمقًا، وأوفى جلاءً، لأنّك امتلكت النّاصية، فلا تُضِعِ الباقية.

هنيئًا لنا –نحن القرّاء– بمثل شجاعتك، وهنيئًا لمصر بك، وهنيئًا للأيام القادمة لأنّها ستحمل الأمل بمثل هذا الأدب الذي ينعش الفؤاد ولا يخدّره، ويوقظ الضّمير ولا يبقيه في سُباته، ويُشعل في الظّلام ولو شمعة.

د. زهراء غضبان

القاهرة – فبراير ٢٠١٨م

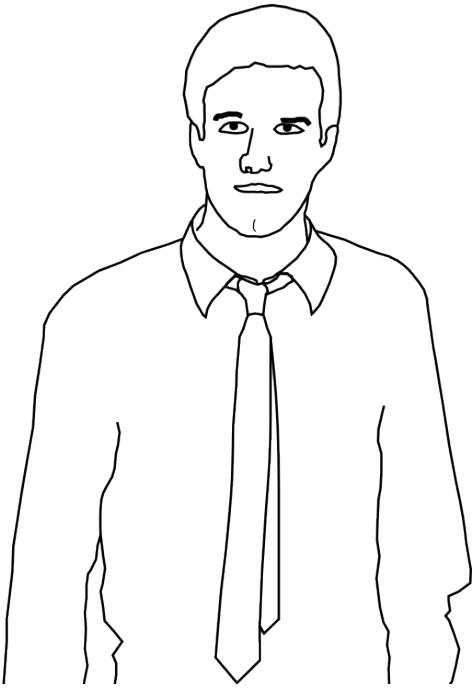

أشلاء!

(دون دماء)

بلا مقدمة

صديقي، كُلنا أنت..

نحن الذين تداهمنا الأوجاع ومتاعب الحياة المثقلة التي باتت ضيّقة لا تتسع لخيط رقيق.

الفساد والجَور ضرب بأحلامك وأحلامنا عرض الحائط، فتوقفنا عن الحلم وصرنا كأشباح تهيم في أرضٍ قاحلة، وإن كثرت ثمارها، جوعى، وإن امتلأت بطوننا نضحك في فراغ مقيت ليعود الصدى فيحفر أخاديد مظلمة على شفاهنا الممزقة بفعل الأيام.

كُلنا أنت..

نعرفك، ونشعر بك، نتألم لك، ونفرح معك، ونحزن كأننا أنت، يقتُلنا الشوق مثلك، وتأخذ الظروف والمسافات منّا ما تأخذه منك.

كلنا أنت..

تلك الأرواح المُنهكة المتعبة من غبار الحياة، السائرة على طريق الأمل، علّها تتلمّس شعاع نورٍ في دروبها المظلمة.

كلنا أنت..

روحٌ تاهت دون رجعة، أو عادت ولكن مشوّهة! تتأرجح يمينًا وشمالًا، ضعيفةً هشّة، آيلة للسقوط مع أوّل عثرة.

كلنا أنت..

إما حزانى على أرواحنا التي سلبها الدهر، وإما مقهورون على تلك الأرواح التي تاهت وسط زحام الأفكار وضغوط الحياة.

كلنا أنت..

نصرخ ليلًا ولا أحد يسمعُنا، ككابوس مرعب، تشعر بأنك تصرخ في فراغ ماردٍ مظلم يشلّ أركان جسدك، تمسك بتلابيب من تحب فيتلاشى، فتهوي حزينًا في غيابات الألم،

كم الألم الذي يخرج من ضحكاتنا، لو اقتسمه العالم لاختلط الأمل بالعجز ولسمعنا صراخ صمتٍ مدوّيًا يمزق جنبات أنفسنا.

كلنا أنت..

تحيا أوطاننا بداخلنا لكننا لا نحيا بداخلها، نحيا فيها مُهمّشين يتملكنا اليأس، نموت فيها قبل أن نحيا.

فكيف تعيش في كنف أم قاتلة رأيت أناملها مخضّبة بدماء إخوتك، وربما تكون أنت الضحية التالية تنتظر منها ابتسامة فإذا في يديها خنجر يمزق أوصالك؟!

كلنا أنت..

نُحِب أوطاننا ولكن أحلامنا يرأسُها حلم السفر بعيدًا، لا لأننا لا نريد البقاء فيها، لكن لأننا نريد لها البقاء فينا.

علَّ ما في هذا الكتاب يُنسيك آلامك ولو للحظات، علّه يسد رمقك أو رمقنا جميعًا، عله يكون سببًا في إحياء روحك من جديد، علَّه يجعلك ترى الحياة بشكلٍ آخر لم ترَها به من قبل.

لِروحِكَ عليكَ حقٌ

يا صديقي..

روحك التي بين جنبيك لها عليك حق في صونها من المتاعب، في حمايتها من آفات الظلام،

ظلام الأيام وظلام الأشخاص:

ظلام الأيام في تركِها عرضةً لكل غادٍ ينهشُ منها ما تبقى لها.. وظلام الأشخاص في إيداعِهم إياها فيُعاملونها أسوأ معاملة فتزهق وتذهب.

يا صديقي..

روحك ثم روحك لا تضيّعها، فكل إنسانٍ عرفته تركت له منها شيئًا، حتى أصبَحَتْ معهم لا تستطيع أن تُلملمها بعدما تبعثرت أشلاءً، في كُل وادٍ قِطعة ترجو منك فَيئة حتى تجتمع مع أقرانها من القِطع.

يا صديقي..

لا تدعها تتلاشى منك، متاعِبُك جعلتك مغيّبًا عنها غير مُدرك لما يحدث لها، ولن تدرِك هذا إلا بعد فوات الأوان، ليتك تُدركه قبل أن تتركك وتذهب.

عندما تُدرِك هذا بعدما تذهب، ستقِف باليَ العينَينِ أمام المرآة تحدق فيها، وتشكّل التساؤلات صراعات في داخلك فتنقلب الأمور رأسًا على عقب وتظل تسأل نفسك، من هذا؟ ومن هذا الذي يقفُ أمامي في المرآة؟!

بالطبع سيكون شخصًا آخر غير الذي عاش معك وعهدته.

يا صديقي..

أدرك روحكَ قبل أن تتلاشى منك..

يا صديقي..

أنتَ ثُم أنتَ ثُم أنتَ، ثُم متاعِبُكَ، والعالمون.

أنينٌ يغزو قلبي

وسط أمواج الظلام، وسط المطويّات المخفية التي لا تظهر، والأنين الكامن الذي لا يرويه ماء، ولا يزيل غشاوته بكاء، وسط أنهار من دموع جرت على صفحة الوجه جرّاء أنين في القلب لا أعرف منه إلا أنه باهت بلا ملامح، غائص في جسدي بلا معالم.

جلستُ أبحر في ذلك الألم الذي تملّكني وجعلني لا أستطيع التفوّه، ربما تملّكنا جميعًا ولا نستطيع البوح به لأنه أكبر من ذلك الوصف المبسّط الذي ما أن نقوله حتى تتسع فجوة الألم بداخلنا.

ومن الناسِ من لا يشعُر بك إلا عندما يرى جرحك ينزف، وأسهم الحياة معلقة في جسدك تنهشه، وأوجاع الدُنيا قد مزقتك من الخارج وأطاحت ببريق عينَيك فحولت بياضهما حُمرة، وكبد الحياة وقد رسم على وجنتك خطوطًا ملتوية قدّمتك في العُمر أعوامًا، لا يشعُر بألمك إلا عندما يراك هزيلًا شاكيًا له إياه.

هؤلاء لا يعرفون للألم معنى حتى لو عاشوه يومًا.

الألم ضيف لا يفتك إلا بأجساد المتعبين ولا يغادر أحدًا إلا تركه ضعيفًا هشًّا مرهقًا لا يقوى على شيء، هو ذلك الشعور المظلم الذي يأتي جرّاء صفعة من صفعات الحياة أو طعنة من طعنات قاطنيها، هو ذلك التلاشي المنبعث من تلك العبرة المخنوقة داخل قفصٍ حديدي مختبئةً بين قلبك وصدرك تحاول الخروج فتتحول لرجفات لا يعلم قدر ألمها إلا أنت.

الألم هو أن تقف الدموع في محجرك بُغية أن تنسكب.

تكاد حينها أن تختنق ولا تستطيع التنفس، تُحاول التخلُّص منها وذرفها من جفون عينَيك.

هنالك شيءٌ لا تعرفه يحول بينك وبين البُكاء، الاختناق يتزايد، والدموع تتراكم، غصة في قصبة الهواءِ تخنق روحك، لا تدري ما الذي يزيحها، أَتَخْرُجُ على هيئة صراخ أم تريد أن تعبُر من عينيك حاملةً مرارتها فتخرج كلماتٍ على هيئة دموع؟!

لا تعلم أين الحكمة حينها، ولا تعرف ما هو هذا الشيء، كل ما تعرفه هو أنك تريد أن تبكي ولا تستطيع، وكأن الدمع المالح يأبى الانسياب في مواطن الجرح ليُحيِيَنا.

الألم هو أن تترُك جزءًا منك في مكان وتذهب بجسدك إلى مكانٍ آخر فيتمزق داخلك إلى أشلاء، ولكنك تبدو صلبًا من الخارج تسُرّ الناظرين.

هو ذلك الشعور أن لا أحد يشعر بك إلا أنت.

وكيف لهم أن يشعروا وأنت تداري أوجاعك كأنها عورات إن كشفت فقدْتَ بذلك طُهرك وعفافك؟!

الألم هو ذلك المزج بين شعور الشجن والفقد، بين عالمين مختلفين اجتمعا بداخلك، في حبيب مفقود يحمل ذكرى جميلة، ووطن غائب تذهب إليه في أحلامك ولا تملك إلا أن تراه حلمًا ضائعًا في يقظتك، حتى لو تسكنه وتحيا على أرضه، فلا أنت تملكه ولا هو يسكنك.

الألم هو ذلك الوجع الذي لا يستكين ولا يغفو برهة من الزمن ليجبرك بدوره على إظهار ضحكات زائفة للتعبير عن سعادة مصطنعة.

هو ذلك الزورق المثقوب الذي لا يقوى على أن يحملَك إلى برّ الشِّفاء، وسط أمواج البحر العاتية، فلا تستطيع التخلي عنه كيلا تغرق في تيه اللا مبالاة، وقد أتعبك التجديف وأنت لا تقوى، يزداد شيئًا فشيئًا حين تتذكر رهبة الظلام المطلة على نفسك الحائرة.

في وسط السؤال، كانت هناك كلمات تذكرني بأحداث مرّت من سنوات، شعرت بشجن تلك اللحظات الجميلة وألم فقدها فامتزج إحساس الشجن بالألم فتحول إلى ألم من نوع خاص، ألم راقٍ يربطه بك أحداث مرت قديمًا مع أشخاص لم يعودوا موجودين الآن، أو يربطك به مكانٌ ما مررت منه بلحظة جميله فرُسم في مخيلتك، أو مكانٌ نشأت فيه فتركته عن طيب نفسٍ منك أو من جراء اعتداء عليه من قبل عدوٍّ غاصب.

فهناك عالم موازٍ يصنعه الألم داخل الفؤاد بعيدًا عن كل الصخب، عالم على قدر ألمه، فريد مليء بالشجن النبيل وكأنك تسكن بمفردك بعيدًا عن ذلك الكون البائس، فهناك أشياء لا تُحكى ولا حروف تنسج معانيها، تظل معلقة بقلبك متأرجحة بين يقين التحقق وشك الوهم فتبعث أنات تحاول أن ترتوي من شريان جسدك المنهك، وبعد أن ترتوي منك رغمًا عنك تتشابك أوجاع الجسد مع آلام الروح فترقد النفس في قاع الهزيمة.

المتألمون الذين يعيشون على الحافة، هؤلاء لا يربطهم بقلب الحياة سوى أطرافها، لا ينتظرون، وربما لا يحلمون، يعيشون بمفردهم ويموتون كذلك بمفردهم أيضًا، يقتلهم الصخب، توقفوا عن الاندهاش، يتألمون لدرجة الحماقة، هم ليسوا حمقى، ولكن يراهم الآخرون حمقى سفهاء أغبياء، يغرّدون بمفردهم يسيرون

دون أن يلتفتوا إلى وجوه البشر، لا تعنيهم الحياة، فهم يعيشون موتى على قيدها، يأملون أن تتوقف قلوبهم فجأة فيسقطوا إلى أعلى حيث السماء، هؤلاء الحمقى يعيشون على حافة حياة ملكوتٍ آخر لا يدركه سواهم فدعوهم وشأنهم.

إن أجمل ما في الألم أنه لا يقبل هؤلاء المتطفلين على ذواتنا.

لا ترحلي

وقفتُ مليًّا أحدِّق..

كل شيءٍ فيها معالمه باهِته..

أقترب شيئًا فشيئًا، لكنّها لا تزال باهتَة المعالم غريبة الملامح، لا أشعُر بها..

شيء ما يحدث لي، ربما أفتقِد الإحساس!

لا أشعر بِكِ يا أنـا، ماذا جرى لي ولكِ؟

الأيام؟

لا تُصدِّق، إنها خُدعة،

الظروف؟

أيضًا لا تُصدِّق، إنها كذبة.

هل لديكِ تفسيرٌ لما أرى؟

هل تشعُرين بي؟

لا تصمتي كثيرًا أُريدُ جوابًا!

فما بداخلي من شتات.. لو وُزّع على أهل الأرض جميعًا لغَمَرهُم،

تعرفين؟ صمتكِ يقلقني وربما لا أصمد طويلًا..

قُولي شيئًا، تحدّثي معي، أحتاج إليكِ..

أستعيذُ بالله من شر بُعدك، لا بُد أن تأتي.

وقفتُ ساعاتٍ طوالًا أبحث عني في ملامحي..

لا أجدُني..

أنا تائهٌ منّي..

هذا الشيب الذي ظهر فوق رأسي يقولُ لي لقد تبدّلتَ لتوِّك، أنت شخص آخر، كُل هذه الخيبات وكُل هذه الطعنات أفقدتك تلك الابتسامة التي كانت تُرسم دائمًا على وجهك.

اقترب مني كي أتذكرَك.

الظلامُ حالكٌ ولا معالِمَ لشيء..

هُناك منادٍ يُنادي، لكني لا أستطيعُ سماعه..

صوتهُ مكتوم، مُبهم المعالم، وكأنهُ صوت أنينٍ بلا حروف..

كلمات تُهمهمُ في الظلام ولا شيء واضح..

بدأ الصوتُ القريب يبتعد وصوت الزحَام يقترب..

أصواتٌ أُخرى ظهرت لم يكُنْ لها أثر..

بدأ صوت الاستغاثة يتلاشى حتى اختفى..

ماذا كان هذا الصوت؟

من أين أتى وماذا يقصد؟

هل هو صوت ضميريَ الذي تغافلت عنه؟

أم إنه صوت روحيَ التائه؟

ربما كانت تُنادي من القريب البعيد، من داخلي المُشتت المليء بالضجيج والسدود!

يا تُرى هل كانت هي؟

ولو كانت هي، ماذا كانت تُريد؟

هل كانت تهتفُ بشعارتٍ لإسقاط كل هذا الظُّلم والطُّغيان الذي وقع عليها مني؟

أم إنها كانت تطلُب مطلبًا عاديًّا كحريّةٍ مثلًا؟

لكن كيفَ أحرّرها وهي أسيرة شتاتٍ أطاح بها أرضًا؟!

هي لا تقوى على العودة، وأنا لا أقوى على لملمتِها..

محفور بها كل مواقف الخِذلان..

ولا أدري أكانت هي المُتخاذلة، أم العالمون حينما ظلموها، أم أنا حين تركتُها وحيدة في الأسرِ ولم ألتفت إليها؟!

حين تحترق الفراشات

بدأت تُحدثني عن نفسِها وأنا وسط الزحام..

لا أُريد سماعكِ الآن، لدينا أشياء أُخرى أهم،

سكتت المسكينة ولم تتحدثْ بعد.

جلستُ معها مرارًا وتَكرارًا حتى تتفوَّه بكلمة لكنها لم تفعل، صدمتُها بكلماتي لكن دون قصدٍ مني.

لقد انهمكت في عملي وأخذتني منها مشاغل الحياة، ولم أهتم بتلك التي عاشت لي، وبذلت من أجلي كثيرًا دون أن أشعُر.

في يومٍ حارٍّ شعرت ببرودتها وكأنها قطعة ثلجٍ في ليلِ كانون..

قلت متسائلًا: «ما بكِ، أأنتِ بخير؟».

(عمّ الصمتُ قليلًا، ولم أتلقَّ جوابًا)

أعلم أنها قد سمعتني ولم تُجِبْ.

يا لكِ من قاسية! وعلى من؟ وفي مصلحة من؟ ولِمَ كل هذا العناد؟!

ألمْ ألبِّ لكِ مطالبك جمعاء؟

هل ينقُصكِ شيء؟

لقد تركت حياتي وما أنا مُكلف به وسهرت الليالي على راحتكِ!

ألا يكفي هذا؟!

ألا يكفي؟!

كم تبدين حمقاءَ وأنت مُحدقة ولم تتفوهي.

كيف أفهمُك من نظراتك؟

لستُ دجّالًا حتى أُطلق العِنان لمخيلتي فتقطِف لي من شرودك وأفكارك، أو تُبقي لي ما أطلقتِه من كلماتٍ صامتة!

أنا لم أبلغ لغة العيون حتى أفهمك..

تحدّثي يا نفسي فأنا أسمعُك..

صوتُكِ أعرفه وسط الزِّحام..

أعلمُ أني كنتُ قاسيًا عِندما تجاهلت حديثك..

لكني أدفعُ ثمنَ هذا الآن..

أنا في شتاتٍ من دونكِ قد حلّت لعنتُك عليَّ مُذ رحيلك..
عودي ولكِ كُلُّ الاهتمام، عودي فأنا من دونِكِ لا شيء..
ولن أكون حتى تعودي.

ألم الوهج

هل عرفتها جيدًا؟

هي التي أقرب إليك من كُل شيء، المُلازمة لك حتى الممات..

لمَ لا تتصالَح معها وتُطلِق لها العِنان؟

تحدث إليها، دعها تُفرِغ لك كُل ما بها ولو لم تنتبه له..

ففي البوح سكينة لها ولك.

لا بُدَّ أن تكسر كل الحواجز التي بينك وبينها..

لا بد أن تفهمها وتفهمك..

لا بد ألا يكون هناك حائل بين ما تفكر به وما ستفعله..

يجب أن يكون من وقتك لها شيءٌ تركن فيه إليها، تتحدث إليها وتسمعك.

هي تتحدث بالإشارة، لذا لا بد أن تكون بارعًا في لغتها..

ستظل متعبةً هكذا حتى تعوّد نفسك على سماعها، لأن السماع هو السبيل الوحيد لفهمها.

أنت أيضًا ستظل متعبًا حتى تحبها، فإن أحببتها بحق، فهمتها وأصغيت لها بحُبٍّ، وانتظرت حديثها بلوعة المحبين.

نفسك هي عالمك، ومصالحتها تعني أنك قد صالحت العالم، تستطيع الإبداع والإحسان إلى ما تعمل وفيما تفعل.

نفسك التي بين جنبيك تحتاج إليك، لا تهملها من أجل أحد، هي الباقية لك والجميع متغيرون.

خَواء

أسيرُ في شوارعي ولا أدري إلامَ ستوصِلُني..

أصبح لجميع البشر وجهٌ واحد..

تبدّلت وجوههم وملامحهم إليه.

ثَمَّتَ شيءٌ انتابني إثر تلك المُقابلة..

لم أعد كما أنا من قبل، شعور بالراحة يغمُرني وأنا في العمل أنتظر شيئًا سيأتي ولا أدري ما هو..

لعلها هيَ..

كانت جميلة في أبهى صورها، في كامل زينتها.

نظرت كثيرًا وأمعنت النظر فيّ، كأنها تريد أن تقول: «أريدك أن تعود لأعود، ظللت تائهةً منك سنين، وأنت غارق وحدك في دنياك، نسيت ما بيننا وما لنا، تتعمد ألا تلتفت إليَّ وأنا أناديك، ها أنا هنا، وربما تكون المرة الأخيرة».

ذهبتْ وذهبتُ لحظتَها لكنّها بقيت تُداهمُ أفكاري وتهدِمُ لذاتي بكُل طيّبٍ أُحاول الاستمتاع به.

بقِيَت تأخُذني مني في كُل لحظةٍ أختلسُها لنفسي وأحاول مصارحتها ومُصالحتها..

بقِيَت تأخُذني بعيدًا من أهلي وصُحبتي! لا بُدَّ من حلّ!

أيا نفسي هل تعودين ثانيةً كي ألملم ما بعثرته الأقدار، وما داهمته الظُّلَم، وما محته المواقف، وما بدلته الأيام، وما جار عليه الليل فأصبح عدوًّا لدودًا بعدما كان صديقًا حميمًا، وما طغى عليه النهار فبات وحشًا كاسِرًا بعدما كان مخلصًا رحيمًا، ومن غاب يومًا فعاد بعيدًا غريبًا بعدما كان قريبًا أنيسًا؟

أيا نفسي، هل تعودين وتزيحين الحُزن عني؟!

ما تبقى لك

تمضي ولا تعلم ما تخبئه لك الأيام، وما تجنيه لك الأقدار، تسلم أمورك لله، وتسير متوكلًا، لا تطمع في حق غيرك، وترجو ألا يجور عليك أحد.

والجور أنواع، وكله أخذٌ للحقوق، فظلم الجسد جور، وظلم النفس جور، وكل منهما أشد من صاحبه.

أما ظلم القلب، فهو أقوى أنواع الجور.

فالجور على القلب يدميه ويهلكه، يقتله بسكّين بارد، لا يتركه إلا بعد أن يمزّقُه ببطء، كي يزيد من ألمه وهو يتغلغل بداخله، فيجعل الألم أضعاف أضعاف.

ورغم قوة هذا الجور فإنه لا يقع من آكلي لحوم البشر، كما تراءى لك الآن، إنما هو من أشخاص عاديين مثلنا تمامًا، بقصدٍ أو من دون قصد، ولا تدري، أيتعمّدون لك الأذى أم لا يرتضونه لك؟ أيقصدون التربُّصَ بك، أم يسهرون على أنغام راحتك؟!

هل تعرف معنى أن يجمعك القدر بروحٍ غريبٍ فيسكُنك بنظرة، ثُم يشاء ذلك القدر أن تعلم أنك أيضًا تسكُنه؟

عندما يُسرع القلبُ في دقّاته وتبرق العينان، عندما ينتابك شعور بالشلل التام فيجعلك في موضع الواقف الراقِد، عندما يرسل جسدك إشارات لا علاقة للعالم بها ولا أحدَ يفهمها إلا أنت.

حينها تُدرك أن هذا الروح تملّكك ولن تخرج منهُ ولا هو يخرج منك أبدَ الدهر.

هل تعلم أن هذا الروح هو أنت؟

هل تعرف ذلك الشعور الذي ينتابك عندما تعلم أن ذلك القدر الذي جمعكما على غير موعد هو ذلك الذي سيحول بينكما، وسيدهسك يومًا ما عندما يقضي على كل الأماني والأحلام التي رسمتها في مخيلتك؟

ثُم تعود وحيدًا منكسرًا كما كنت!

تحاول جاهدًا أن تلملم شتات نفسك.

تتمنى لو كنت نسيًا منسيًّا، قبل هذا الجور المبين المفجع الذي لا تلتئم جروحه إلا بثمنٍ، هذا الثمن هو العمر.

ولكن هيهات!

تمضي تئنُّ وتلملم ما تبقَّى منك لما تبقى لك.

أنين، على لسان القلب!

عُدتُ إلى مكاني حيثُ مسكني في جوف الصدر أشعُّ حنينًا وغيظًا، أنبضُ سريعًا دون توقف، كيف يهدأُ دمي وقد أتعبني الجفاء؟، أشعُر كأنّي في صحراء خاوية، ألهثُ من شدةِ العطش، أشعُر بفجوة تكبُر وتتسع.

هل تشعُر بي؟

هل تسمعُ أنيني وغيظي؟

هل تتألّم أيها الجسدُ مثلما أتألم؟

بتُّ لا أطيقك أيها الجسد البالي، أتمنى لو أفرّ منك إلى حيث لا أدري، إلى الفضاء الفسيح.

أريد أن أركن إلى شيء ولا أعرف ما هو!

هذه الخيبات التي لم أُفرغها مُنذُ زمنٍ بعيد قد تراكمت فسدَّت أنفاسي وأثقلتني.

أتنفسُ ببُطء وكأنما أصَّعَّدُ في السماء.

أشعر أنني سبب هذه العّلة التي اعترتك!

فكيف لجسدٍ يسير مُطمئِنًّا وقلبهُ مهترئ؟

وكيف له أن يُبدع ويُتقن عمله وقلبه عليل لا يقوى على أداء مهامِّه على الوجه الصحيح؟

معذرةً يا صديقي، أعلم أنه قد ضاق صدرُك من حديثي، لكن انتظر سيأتينا الفرج قريبًا.

لكن لا سبيل لك للخروج من هذا، إلا البوح.

ذات مرة ارتفعت درجةُ حرارتي، فقُمت أتخبّط بين جنبات القفص الصدريّ وأنا أضرب به نفسي التي ما عادت تطيق.

أصرخُ بصوتٍ مكتوم لا يخرُج إلى الملأ، هلا تتذكر الكابوسَ الذي يأتيكَ على هيئة شبح يجري وراءك وأنت تشعُرُ أنك مُقيد بلا حَراك، تُريدُ الصراخ فلا صوت يخرُج من فمك!

نعَمْ، إنه الجاثوم قد تملّك مني، وهذه حالتى الآن.

حالة خوار

أيُها الجسد كيفَ تقوى على هذا الروتين اليومي البئيس؟!

كيف تُطلق لابتسامتك الصفراء عِنانها وأنت تبدو ساكِنًا ولكنك تتألم من الداخل؟

كيف تستطيع أن تبقى صُلبًا هكذا وأنت في حالة من التصلُّب واللاشعور؟

أنت جسدٌ ميّت،

وأنا لا أُسمع الموتى.

أيُها الجسد، ما لي أراك تسير بعيدًا عن الطريق؟ سنهلكُ جميعًا!

هلّا تتفقد طريقًا إلى النجاة من هذه المحنة التي قد شيّبت رأسَك ورسمت خرائط العالم أجمع على ملامِح وجهك!

هلَّا تتدبر آيةً أو تتفقه مسألةً!

علَّنا نخرجُ من هذا الضيق الذي تملَّكَ جذورنا حتى أتعبنا وأهلكنا.

اشبعوا فالموتُ يخطف

تأخُذكَ دوامة الحياة، لا تُبالِي بمن يفرَح ومن يحزَن، ومن يكبر.

يأخُذك عالـمُك إلى بعيد حيثُ التيه، فتنسى أن لك أحبابًا، وأقارب وأصدقاء، تظلُّ هكذا تائِهًا حتى يصفعَكَ خبرُ فقدانِ أحدِهم، وأنت لا تعلم كيفَ حدثَ هذا.

تُردد في ذهول: «انتظروا؛ لم أودعه، لم أحظَ بوقتي معهُ! لقد كنتُ مشغولًا مطحونًا في دوّامتي، ها أنا وكلي أسًى أتوسَّل إليكُم أن تُعيدوه لي...».

ولكن؟! هيهات!

قد حان وقتُ الرحيل وأنت لا تزال واقفًا على الرصيف لا يتحرك لك ساكن، والقِطارُ يسيرُ بهم.

لو أمعنتَ النظرَ في نوافِذهِ قليلًا، لوجدتهُم يُشيرون إليك بتوسُّلٍ ليودّعوك، كانوا ينتظرونك أن تودّعهم ولكنك لم تنتبه لإشاراتهم وأدركتَ هذا كُلَّهُ بعد فواتِ الأوان.

بعدما رحل القِطار وتلاشَوا.

فهل تعود، وتُزيحُ الحُزنَ عنّي؟

أيا روحي بعدما تركتَنا في التيه، لم نعد (أنا وقلبي) نستطيع التحمُّل..

سمعته يئن ويبكي بكاءً مريرًا..

للوهلةِ الأولى أشعر وكأنه رضيع يبكي من الظمأ، لم يعُد جسدي أيضًا يحتمل هذا.

بات يجري يَمنةً ويَسرةً بحثًا عن الراحة في أرجاء السهول والهضاب، في كنف العمل وزوايا البيوت، يجلس بالساعات شاردًا بين صفا أنينه ومروة حياته، لم يستطع توفير جرعة أمان للقلب الذي ما زال يبكي.

وكلما مر بيننا الوقت دون لقاء، كبرت الفجوة واتسعت.

أتلاشى منكَ كما تتلاشى مني؟ هل حقًّا سنظل هكذا حتى نصبح غريبَين؟

لا أدري ولكن هذا ما أخشاه.

إنكارك بداخلي يجعلني بعيدًا كل البعد عن مواصلة حياتي العادية، عن أداء واجباتي كما ينبغي.

إنني يا روحي وقد بدأتُ أتلمسُكَ في أشياءَ، ولا أدري أصحيحة هي أم محض خيالات!

أتلمسُكَ في ذلك الطفل الباسم، وفي تلك الصغيرة الجميلة البسيطة، في تلك الأرواح البريئة النقية التي لا تحمل همومًا ولا تعتريها أكدار.

أمّا بعدُ..

فيا روحِي، هل تعود أم إنكَ أدمنتَ البُعد؟

هل هي آفة أزلية قد لازمتكَ فأصبحتَ غريبًا عنّي حتى يصعُب عليكَ العودة لي؟

هل الوضع الآن أفضل من سابقهِ فنسيتَ أيَّ ماضٍ كُنتَ؟

أمّا بعدُ، هل نسيتَ أم تناسَيتَ؟

هل فقدتَ لذةَ القُربِ والمُناجاة؟

أرياءٌ كُلُّ ما كانَ يصدرُ مِنكَ، أم مُبالغةٌ في الشعور؟

أم أنكَ ممن يستمتِعون بلذة البدايات، ومن ثم يُهملونها؟

أمّا بعدُ..

فأشتاقُ إليكَ حينَ تنكَسِرُ وتخشعُ في الصلاة..

وأشتاقُ إليكَ وأنتَ مُتقطِّعٌ أسفًا على الحِرمانٍ من شيءٍ قد نالهُ أحدُ الصالحين وارتقى به!

وأشتاقُ إليكَ وأنتَ عالقٌ على أستار مغفِرةٍ تبوحُ بكُلِّ ما ضيَّقَ عليكَ أنفاسَكَ ومن ثمَّ تُطلقُ لي زفرةَ التخلُّص والارتياح.

وأشتاقُ إليكَ وأنتَ غريبٌ عنهُم شاردٌ في تفاصيل التفاصيل.

أمّا بعدُ..

فهل تعودُ، وتُزيحُ الحُزنَ عنّي؟

وكم كنت غارقًا في أوهامي وقد خيل لي أنها أحلامٌ تتحقق، ولم أكن أعلم أني أعيش مع نفسي في عالم افتراضي وهمي لا نهاية له سوى نهاية واحدة مأساوية، نهايته بحر واسع من التيه، ظلام دامس يعم أرجاءه، وأنا لا أدري كيف السبيل إلى النجاة منه!

إن المرء ليغرق في هذا العالم البعيد عن حياته ونفسه فيأخذهما إلى مكان آخر ويترك الجسد متوهمًا أنه لا يشعر، وقد فقد الإحساس بالأشياء وتَعرُّفِها.

وعادةً ما يصعب التخلص من هذه الأوهام إلا بعد معاناة تدوم طويلًا، قد يمتد أثرها إلى ما بعد ذلك بكثير.

ومن الناس من يسير بجوارهم قطار الآمال وهم غارقون في وهم الحياة وبؤر الظلام التي جعلت أعينهم في غشاوة لا يبصرون سوى الظلام، ولو رأوا النور لفزعوا فزع المتيقِّن من الهلاك، لا يعلمون موعد ولوج هذا القطار إلى محطات حياتهم ولا موعد رحيله وربما لا يعلمون أن هناك قطارًا من الأساس.

مائل منحدر

في حالة من حالات التعلُّق بالأشخاص يغرق كثيرٌ منا إلى حد العشق اللامنتهي، فما إن فقد أحدهم عزيزه إلا وباغتته الآلام والجروح التي لا تلتئم رغم مرور السنين.

يعيش هذا الشخص في خواء، وقد فقد شطرًا من حياته كان يستند إليه إذا أراد ذلك، لا يستطيع أن يتجاوز هذا ولا يستطيع التأقلم مع الواقع الذي يعيشه، إنه الفقد المرير المنغّص للعيش.

معذور ذلك المسكين الذي سلّم للقدر ورضي بما أنزله الله عليه من بلاء.

يا لجمال قلبه الراضي الذي لا يفصح عمَّا بداخله من ألم لأنه يعلم أن ما به هو له فقط.

هنيئًا له ثم هنيئًا عندما يتوارى عن الناس ليفرغ هذا الألم الكامن داخِلَه في دمعة تحرق خديه من حرارتها.

«هذه الدمعة الصادقة أراد أن يخفيها لأنه يعلم أنْ لا أحد يشعر بها سواه».

مهما بلغ الكلام ما بلغ، ومهما وصف الشعور ما وصف، فما يشعر به لا تصفه كلمات، ولا يعبر عنه أنين ولا دموع، فما هذه إلا بعض الشظايا من بركان عميق على وشك الانفجار.

رفقًا بهِ

وما التيهُ إلا نِتاجُ خيباتٍ وأوجاعٍ تعترينا، وما التخلصُ والخروج منه إلا بالتخلص من هذه الأوجَاع.

وإنّ أصعبها هي تلك المتعلقة بالأشخاص، فهي ترحل برحيلك أو رحيلهم.

وإنّ أكثرها إيلامًا هي تلك المتعلقة بالأماكن التي لا سبيل للعدول عنها، فهي تذهب بالهجرة لا حل آخر.

وإنهُ ليأتيك الألم في رائحة تعلقت بها يومًا فيخنقك حتى يكاد أن يختلع روحك من رقبتك.

فارفق بنفسك ولا تُعلقها.

فإن التعلق مظلمةٌ للجسد والروح والقلب، فما كان في أحدهم إلا أوجع الباقين وأضمرهم، والقلبُ أكثرهم استهلاكًا، فيمكن الجسدَ أن يتجمّل رغم ألمه، والروحَ أن يداري أوجاعه ويبتسم.

إلا القلب يجلسُ وحيدًا يبكي ويئنّ.

الله لقلبك المتماسك

يا أنين العالم، يا أوجاع البشر، يا سكان الأرض والفضاء، يا أيها البشر المنغمسون في السعادة الدائمة، امتلأت أفواهكم بالضحكات وثغوركم بالبسمات.

هل هي صادقة حقًّا؟ أم إنكم تخبئون وراءها أوجاعكم مثلي؟

ليس بِيَ القدر الكافي من الألم ليظهر على ملامحي، لكن ألمي لا يشعر به سواي وهذا ألمٌ من أصعب ما يكون.

الألم المعروف للجميع دائمًا ما تكون آثاره سريعة الذوبان، ببوح صادقٍ يمحو بعضًا من آثاره الظاهرة، ويبقى ما في الخفاء للأيام والمواقف.

لكن ما في الخفاء ألمٌ يصعب تجاوزه لأن صاحبه لا يستطيع أن يبوح به، وإن استطاع فلن يجدَ من يشعر به!

إليك يا صديقي صاحب ذلك الألم الذي لا يعرفه أحد..

الله الله في قلبك المتماسك الثابت على ذلك الجرف الذي لا يتحمل الوقوف عليه سوى الصادقين الأقوياء، الساعين بصدقٍ وراء أهدافهم وأحلامهم، حتى لو أوقفهم ذلك الألم واقتطع من وقتهم، فإنهم يقفون بعد ذلك ليظهروا أمامنا بمظهر الثابت الصلب.

أعلم ونعلم جميعًا أن جرحك عميق، ومهما بلغ بك الألم لا نستطيع أن نشعر بك، لكن نقدر لك ذلك ونخجل من أنفسنا لأنك وما أنت فيه تفوقنا بمراحل من النجاح والقوة.

فأنت ثابت تحمل بركانًا يفجر ضلوعك، وبركاننا يطفو على وجوهنا كلما اشتكنا بشوكةٍ تأفأفنا وظهر سخطنا على وجوهنا، ولا نستطيع أن نتحلَّى بشيءٍ من التماسك الذي يملؤك.

حينٌ من الدّهر

في عالمي الآخر، هُناك أجلِسُ مُنفردًا، أشعُر بالوَحدة مُذ أتيت، ذهبوا وذهبت ابتهالاتهم الباكية حالَ صدمتُ الرحيل!

سمعتُ دبيب أقدامهم يتلاشى، حتى مضى زمنٌ كلما سمعتُ ذلك الدبيب انتعش قلبي فرحًا، ظانًّا أنهم أحبابي لكن! هيهات؛ إنه دبيب وافِدٍ جديد ومعهُ أهله.

لو علِم أنّ هذه هي المرة الأخيرة التي يأتونه فيها لأوصى ألا يأتوا من البداية.

وطِئَ الوافِدُ الجديد مقبرتي، سمع دبيب أقدامهم تتناثر، بدا على وجههِ الخوف، كان يُطمئنه نحيب الأبناء وصياح الأصدقاء، ثم بدأ الدبيب يقل شيئًا فشيئًا، وأصوات البُكاء تقِلُّ حتى تلاشت إلا من عزيز جلسَ يبكي بُكاء صبٍّ مكلوم.

رأيت الخوف يتطاير من عينيه مرسومًا على وجهه، المسكين بدا خائفًا يُطمئن نفسه قائلًا: «كلا، سيشتاقون ويعودونَ قريبًا!».

عاد صوتُ البُكاء من جديد، الدعوات تنهالُ علينا من كُل حدَبٍ وصوب، هُناك صوتٌ مألوف يقرأُ الفاتحة!

من هذا؟ إنهُ ابني البار قد عاد ليدعو لي، أشعُر به، روحي تكادُ تحتضنه.

لكن ما هذا؟ إنهُ يحفِر فوق قبري! لقد دفعه الحُب أولًا والشوقُ ثانيًا رغبة في عِناقي.

صوتُ خرير الماء بدأ يتدفَقُ من الحُفرة!

يا بُني أنا لا أُريدُ ماءً..

فقط أُريدُك أن تبقى..

أو.. إن رحلت فلا تألف البُعد!

عِندما جئتموني، ودِدتُ احتضانكم من لوعتي، أفتقدُكم كثيرًا، لماذا تزرعون الصبّار خاصةً؟

هل يزيحُ شُعور الوحدة عنّي فيمُدّني بالصبر كي أتحمّل فِراقكم؟

هل عقدتُم النيّة ألا تعودوا قريبًا فأتيتُم بهذا الشيء؟

لكن هيهات، هُم في حالهم يزرعون وأنا هُنا أتساءل!

ومن قال إن الأحياءَ يسمعون الموتى؟

مرّ زمنٌ طويل كان كافيًا للإجابة عن تساؤلاتي..

قد زرعوا الصبّار ورحلوا لأنه الشيء الوحيد الذي يقوى على فِراقهم أعوامًا ولا يشتاقُ إليهم.

ألا ليتني صبّارة أقوى على تحمُّل بُعدهم، وكأنهم ماءٌ في حضرتي يسبح بعيدًا في مشاغله لريّ ما هو أحقُّ مني في الحياة.

أحبابي، أنا لستُ صبّارةً تتحمّلُ بُعد الماء عنها.

أنا ميّتٌ أحببتموه يومًا وقد أخلص في حُبكم!

لِمَ تركتموني والتُراب وحدنا؟

أتساءل: أنسيتم أم تناسيتم أم إن للأحياء أولويةَ الاهتمام أم كان حُبكم لي نفاقًا، تضحكون لي وتهتمون بي لأني أراكُم، وعندما رحلت عن الحياة رحلتم؟!

في عالم الأحياءِ كنتُ أسمعُ أنَّ من فات مات، لكن الحقيقة أنه من مات فَات، من وطِئ الثرى انشغل عنهُ الأحياء، انشغل عنه من كان يزعُم يومًا أنه الحبيب والخلّ.

أما زلتم تتذكرون كلماتي وضحكاتي، أم أتى من بعدي من ملأ دُنياكم فتلاشت خيالاتي من أذهانكم؟!

هل كان موتي آخِر عهدي بكم، فرحلتُ من دُنياكم بلا رجعة ولو بتذكُّري؟

«لو تعلمون أنّ كُل من تعرفون وكل ما تجمعون لا يُغنونَ عنكم لحظةً في البُعد المُخيف، لو تعلمون أنه سيأتي يوم لن يذكُركُم ذاكر ولن يشكُركم شاكر.

عندما تكونون ذكرى في أذهان الغادين، وصورة تذكارية مُعلقة في إحدى زوايا المنزل يعلوها وشاحٌ أسودُ باهت!

عندما تكونون اللاشيء عند الحفيد الذي لا يعرف عنكم سوى اسمٍ مُدرجٍ في بطاقته يسبقهُ قبل اسمهِ اسمٌ أو اسمان!

لو علمتم أنّ كل هذه البهرجة والتزيُّن ما هو إلا زيفٌ زائل وسيُنسى يومًا، لما فعلتُم شيئًا في أيّ شيءٍ أيها الأحياء المساكين.

في قواميسكم من مات فات.

لقد بنيت الصخور، وربّيت الفحول، وقطعت الأميال من أجل هذا الموعد حيثُ الغُربة والوحدة الموحشة.

تأتونني كُل عام لتسقوا لي صديقتي الصبّارة التي لم تمَل من وحدتها.

شكرًا صديقتي الصبّارة..

تحمَّلْتِ أقاصي بُعد المياه عنكِ، وتقبَّلْتِ الواقع بصدرٍ رحب..

تحمّلتِ ما لا أطيق، رُبما لأنك تعودتِ هذا، لكني كنت في العيش عزيزًا مُدللًا هم كانوا كالماء الذي يرويني لكنه ابتعد وانقطع، ألا ليتهُم يعلمون أني أحتاجُ إلى ابتهالاتهم في كل ثانية تمُر من أعمارهم، فحينها تنسابُ قطرات الماء على صبّارتي فترويني وتحييني إلى حينِ لقاء.

هل تعلمين أيتُها الصبّارة الصابرة أن الميت يستأنس بذكر الحيّ له، يشعُر به كُلما ذكره أو أتاه زائرًا؟

لكن المؤسف أن الأحياء لا يُبالون!

ظنُّوا أنّ من مات تحوّل إلى تُرابٍ فانتهى أمره وخبره وفات، وكأن الروح لا مكان لها في حياتِنا، واتخذوا البُعد والنسيان سبيلًا.

قالت الصبّارة بنبرةٍ مواسية مليئة بالألم:

«قد ورثت تلك المهمة المريرة أبًا عن جَد، وقد كشفت لي فترة مكوثي عن تساؤلاتٍ سكنت هاجسي زمنًا طويلاً.

تجلِس مُنفردًا لكنك لا ترى ما أراه!

إني أرى الفتيان في أعمار الصبا يترجلون نحو المقابر خائفين مُترقبين تعلو وجوههم الدهشة واللهفة على شخصٍ كان منذُ ساعاتٍ يجلسُ بينهم!

يكبرون شيئًا فشيئًا ولا أراهم إلا وقد تغيرت ملامِحهُم حزنًا على فِراق من يودّعونه بجواري.

وأراهم ثانيةً في فقدانٍ آخر، أو في زيارة بعد زمن قد غير بعضًا من ملامحهم، حتى تأخذهم الدنيا في تيهِ دروبها ثم يأتوا إلينا ساكنين فيصحبونا أبدَ الدهر.

تجلسُ يملؤك الأسى من بُعدهم!

فماذا عنّي وأنا لم أرهم مُذ عرفتهم إلا حزانى قد كسّر ملامحهم ألم الفَقد، وكأني خُلقتُ لأُراقب الناس في حُزنهم وأصطحبهم بعد انتهاء أعمارهِم؟!

أراقبهم وهم في دُنياهُم غارقون مُتناسون أن البقاء في ذلك العالم لا أمل فيه، فلا خلود لكائن حي!

مُتناسون أنهم سيأتون رُغمًا عنهم فلا تبتئس بما يفعلون.

ستلتقي وأحبابك عن قريب، وعندما يأتون سيشعرون أنهم قد فارقوك ساعةً من نهار! فاشدُد أزرهم ولا تُكثر من عتابِهم.

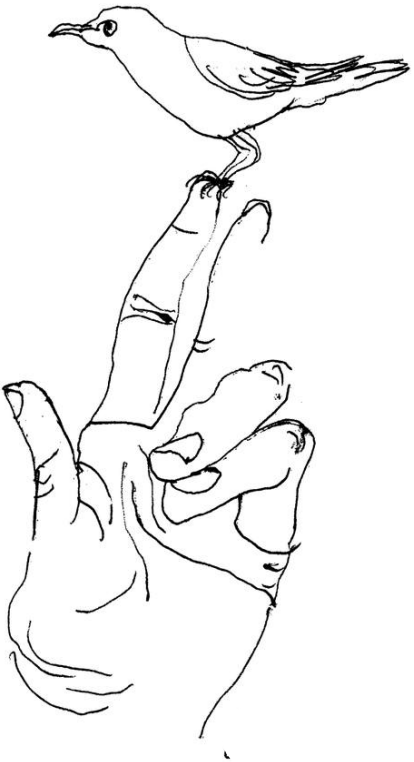

هل كُنت هُناك؟

«عِندما استخرجوا الأملَ من باطِنِ اليأس»

جلستُ يائسًا بعدما باءت كل محاولاتي بالفشل، أتخيّل الهواء على هيئة غمامات حاجبة للرؤية لا شيء يظهر من خلالها، لمَ كل هذا العذاب والكدر؟

جلستُ مليًّا أفكر، تراودني تساؤلاتي بأوجهها العديدة، وأشكالها المختلفة، ومواقفها التي أعرفها جيدًا.

بين زحام الإجابات جلست أسألها وهي تجيب، كل الإجابات متشابهة..

والسؤال هو:

هل كُنتَ هناك؟

في السفينة؟

هل كنت هُناك عندما نادى القوم بالعصيان، عندما أعلنوها صريحة «ألا نتبع سبيلكم كما اتبعه الأرذلون» عندما اجتمعوا عليه بالأقاويل بهتانًا.

أوَتأذيت مثلما تأذى؟

أوَكنت من صبيته الذين ناصروه؟

أكانت سِنُّك نصفَ أو ربعَ سِنِّه؟

أتعلم قدر المثابرة على الألم التي عاشها سيدنا نوح عليه السلام مع دعوة قومه وكم الأذى الذي تعرض له في هذه الحياة الطويلة؟

«فلبِث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا».

ألفَ سنةٍ يدعوهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا، فلم تزدهم تلك الدعوة إلا فرارًا وعنادًا، فرارًا من الحق، وعنادًا له، بعقول غائبة، وقلوب متبلّدة، لا يفقهون سوى أمر واحد فقط، هو أنهم لا يستجيبون، بل يستكبرون استكبارًا.

هل جربت شعور أن تهجرك زوجتك ويكون ولدك مع الخاسرين؟ هل جربت أن تسير بين أناس يصفونك بهتانًا بالخرِف الذي شيّبه المرض، وأنت على يقين أنك على صواب؟

كَمُّ الألم النفسي والبدني الذي عايشه سيدنا نوح في حياته بين عناد قومه وظلم ولده وزوجته، أنت لم تجرب مقدار ذرة منه، ومع ذلك تجلسُ يائسًا تحملُ همًّا لدنيا فانيةٍ تعلم أن مقاديرها بيد الله وتندب حظك معها!

ألا تخجل أن الذي يشغلك دون الذي كان يشغل سيدنا نوح عليه السلام؟

ليتك تعلم!

في ظلماتٍ ثلاث

تجلسُ منكسرًا حاملًا همومك فوق عاتقك ولا تفكر، تخرج من ظلمة إلى ظلمة، ولا تدري إلى أين تذهب، كل الذي بينك وبين النور ظلمات لا معالم للخروج منها.

هل فكرت يومًا أن هذه الظلمات هي نتاج ذنبٍ لا تزول إلا مع زواله؟

لأن الله يحبك..

يبتليك بعد الذنب لتتوب منه، وكُلما طال البلاء عظُم الجزاء.

من بين كل الجالسين تكون أنت المُبتلى، من بينهم وحدك من يقع عليه الاختيار ليكون نصيبك الاختبار من الله.

نعم، لقد اختارك ليطهّرك، لتمرّ بمراحل الظلمات التي أنت فيها، ثم تخرج طاهرًا مطهّرًا بعد معرفة الطريق إليه، بعد اليقين أنه هو وحده القادر على إخراجك من ظلماتك.

كُل ما فعلتهُ يا صديقي هو الاستسلام لفم الحوت حتى ابتلعك، وتعايشت مع عتَمة جوفه وما فيه من كدر لتعيش دور الضحيّة.

هذا الدور الذي لا يجني سوى الآلام والمتاعب.

لو تلمّست شُعاع النور المُنبعث من قلب الأمل الذي داخلك، لفعلت ما بوسعك حتي تخرج من الظلمات التي داهمتك.

لو التمست الأمل لأتاك على هيئة تسبيحة قد تُخرجك إلى جرف الحياة لتنبت عليك يقطينة تأخذك إلى مئة ألف أو يزيدون.

إلى حُلم خرجت منه يائسًا يومًا لأنه لم يتحقق بعد.

[فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ] {الصافات : ١٤٣}

رُبما أنت عالق في ضيقك وأتعابك بسبب أنك لست منهم، فلبثت فيها كُل هذا!

هل جربت أن تتجاوز ضيقك بتسبيحة؟

هذا ربي هذا أكبر!

في جلسة تعلم من حكيم، وسط الآلاف من المنجرفين، جلس يبحث عن إلهه الذي خلقه.

وجد نجمًا لمع وانسل منه شعاعٌ فقال هذا ربي.

لم تكن الهداية إلى الطريق بهذا اليسر، لكن هي مراحل وخطوات لا بد أن تمر عليها حتى تصل إلى القمة.

قمة الهداية التي تجعلك أعلى.

في رحلة بحث مرت بثلاث مراحل واكتشافات مع يقين تام بالوصول إلى الصواب المفطور في قلبه وصل في النهاية.

لم يكن هذا البحث نابعًا من موطن شكوك عنده، بل كان عين اليقين، لكنه كان ليعلّمهم كيفية البحث عن الخالق سبحانه، بإقناعهم تدريجيًّا كيف يكون الاقتناع به.

ليعلّمهم كيف يكون لهذا الكون خالق لا يغيب!

في كل مرحلة من تلك المراحل **كان يعلم علم اليقين أن الإله لا يغيب**، فكلما غاب أحدهم علمّهم أن فوقه خالقًا.

يعلّمهم أنه كيف لإله يغيب أن يحفظ هذا التنظيم الكوني وأن يرعاه بمعيته، كيف لإله ألا يكون حاضرًا إذا لجأت إليه.

تُعلّمنا تلك الرحلة، كيفية إثبات الحقيقة لنفوسنا الحائرة، كيفية إقناعها بالسير على طريق الأمل بخطى واثقة، كيفية اتِّباع شعاع النور المنبثِق من أنفاقها المظلمة الواصل لنور الأمل واليقين.

قابل متاعبك ومصاعبك وأحزانك وأكدارك بيقين داخلي أن الله معك، ويرعاك، وسينصرك، اُصْرُخ فيهم قائلًا: «إني بريءٌ منكم إني أخافُ الله رب العالمين».

مهما ظن الجميع ومهما حاولوا مرارًا أن يجعلوك تيأس لتظل تائهًا لا بُد أن تسعى وراء حلمك الذي تؤمن به.

تلمس هذا الحلم المتلاشي منك في كل ما حولك، حاول مرة تلو الأخرى ولا بد أن تصل إليه يومًا.

ستجده يتعقبك كما تتعقبه، سيهديك الله إليه لكن لا بد أن تضعَ قدميك على الطريق كي تصل.

لا بُد أن تكسر أصنام الظلم التي أمامك، كي ينبثق نور الحق.

لا بُد أن تقف أمامهم ليعلم كل المثبطين أنهم لا يفقهون ولا يعقلون، أنهم بإرادةٍ منك ويقين أن الله معك ستهزمهم وستصل.

سيتكالبون عليك؟

سيدمّرون آمالك وأحلامك؟

سيكذّبونك وأنت في قمّة صدقك مع نفسك وتفعل ما يجب عليك فعله وتقول الصواب، الذي هو بالفعل الصواب النابع من إيمانك ويقينك؟

سيُلقونك في نيران العناد والظلم محاولة تكسير مجاديفك كيلا تستمر في النجاح وتكفّ عن السير نحو أحلامك وأهدافك؟

مهما تجمّعوا وحاولوا أن يلقوك في نارهم المضللة وأن يبتروا حلمك ويجعلوك عدمًا، لا بد أن يكون إيمانك بالله أقوى من نيرانهم، كي تكون بردًا على حلمك وسلامًا.

قدَم الرضيع

هل كُنت تُراقب أُمنا هاجر عندما تركها سيدنا إبراهيم عليه السلام في صحراء بلا مأوى ولا بشر؟

لقد تعلّق أملها بالله فامتثلت أمره.

لم تشْكُ زوجًا هجَرَها وتركَها بطفلها للهلاك،

لم تحتضن الرضيع وتبكِه أسفًا حتى يأتيهما الموت،

لم تستسلم لدروب التيه الفسيحة التى أصبحت فيها بين عشية وضحاها وقامت،

قامت تبحث لها ولرضيعها عن شعاع أمل ونور،

قامت تبحث يمنةً ويسرةً عسى الله أن يرزقها ما يسد رمق قلب صغيرها الباكي،

فوق الصفا والمروة، مارَّةً بالصخور الصلدة والهوام القاتلة.

لم تتخلَّ عن صغيرها حين ذهبت لكن تركته في معيّة الله حتى تعود.

إن التوكل والأخذ بالأسباب في مثل هذا عامل أساسي في تحقيق الهدف حتى لو باتت أسباب تحقيقه مجهولة، لكنك موقِن أن الله معك وسيهديك طريقه ومن ثم سينصرك.

إذًا لن يضيعنا.

كان هذا يقين أمنا هاجر، عندما أتاها الجواب بإيماءةٍ من رأس أبينا إبراهيم أن هذا أمر الله، وما كان منها إلا أن رضيت وسلمت أمرها لله وأيقنت أنّهَ لن يضيعهما.

هل فكَّرت يومًا أن ما أنت فيه هو أمرُ الله؟

هل فكرت أن تسلّم نفسك لله وتفعل ما عليك فعله وتنتظر النتيجة مع يقين تام أنها ستتحقق؟

لو فكَّرت وسعيت بين صفا عملك ومروة حُلمك لأتتك الأماني على هيئة ينابيع من أبسط الأمور، كما جاءت لأمنا هاجر من قدم رضيع كان يبكي.

إن عين المياه التي تفجّرت تحت قدمَي سيدنا إسماعيل عليه السلام وهو رضيع، لم تكُن لتستسلم لآلات عملاقة حتى تُخرِج ما فيها ما لم يأذن لها الله في ذلك.

لكنها استسلمت لقدمِ رضيعٍ لا قوة فيها سوى أنها تلوِّح هكذا نتاج الصراخ!

إنها الأسباب، إنهُ أمر الله الذي يقول للشيء «كُن» فيكون.

حلمك الذي تسعى إليه، لن تصل إليه بالسفن العملاقة، ولا بالآلات التي تطوي الأرض أسفلها، وإنما هو أمر الله، إن أذن له أن يكون، فلن يعوقه عائق، ولن يمنعه مانع.

لتسْعَ إليه بكل ما أوتيت من أسباب، وسيهيئُه الله لك من أحدهم.

كُن على يقين.

أطغى الطواغيت

رجل آتاه الله ملكًا فطغى..

قتل وشرد الناس ودعاهم لعبادته..

علم بخطر قادم فبات يقتل فيهم عامًا ويعفو عنهم عامًا..

كان يعلم أن كلمةً صادقةً ستخرج يومًا من فمِ أحدهم صاعقةً له ولِما يبنيه من طاغوت.

فما كان إلا أن رزقه الله بهذه الكلمة في عقر داره.

كبرتْ وبلغتْ أشدها تحت رعايته حتى خرجتْ في موعدها الذي أذن لها الله فيه أن تخرج.

هل نظرت لجبال الهموم التي تعلو فوق رأسك على أنها طاغوتٌ كبيرٌ سيهزمه شعاع أمل منبثق من بينِ طيّاتك ينتظرُ منك أن تسقيه بقطرات الصبر واليقين ليُثمِر؟

بلغ سيدنا موسى عليه السلام أشُده في قصر الطاغوت، وما كانت بينهما صلة ولا قرابة لكنه [قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ] {القصص : ٩}، إنها معيّة الله وحِفظه الذي أخذه من أحضان الموت إلى فسيح الحياة!

لم تكن نية القتل كافية، لكن تعدد النيات، جعله يرحل تاركًا أرضه، هاربًا بعيدًا عن موطنه الذي تربى فيه.

خرج من أرضه متأذيًا بعدما جاءه نداء الله على هيئة رجل من أقصى المدينة يسعى، ليُعلمه بأن هناك أذًى سيلحقه، آمرًا إياه بترك البلدة وما حوَت.

بقيَت ذكرى أمه ملازمةً له ما بقي، لم تفارقه.

يأخذ منها العبرة بالإيمان ومضاعفة اليقين عندما تجاوزت ضَائقتها، لما أرادت بأمر الله أن تقذفه في اليم، [فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ] {طه : ٣٩}، رُغم ضيق صدرها وعلمها أن هناك خطرين، خطرَ الماء وخطرَ العدوّ.

لكن حضرها الإيمان على هيئة ربطٍ على قلبها [لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا] {القصص : ١٠}، كان الأمل واليقين هما الرفيقين اللذين ساعداها على تجاوز الأمر.

هذا ما جعله يسعى بيقين ويأخذ بالأسباب حتى تهيأ له النصر.

عصا تبطل كيد السحرة، وبحر بأمواجه العاتية يخضع خضوعًا تامًّا ينشق له ولقومه ليمروا آمنين.

هل فكرت أنك ستمُر أنت وروحك المُتعبة وأحلامك وآمالك من وسط هذه الكبوات والنكبات والضيق لتخرج سالمًا من الناحية الأخرى حيث الحياة الجديدة والنصر المبين والتخلص التام من همومك وأكدارك؟

أكان ضيقك مُتشابهًا أم إنك تيأس ولا تُريد للأمل أن ينظُرك؟!

تلمّسْ أسبابه تجدْه في كل شيء يهتف فيك أن انظر إلي! أنا هنا! فقط أحتاج منك إلى سويعاتٍ من الصبر.

رُبما يأتيك الأمل في عصاك التي تتكئ عليها أو في بحرٍ حسبته يومًا أنهُ مُهلكك وأنك فيه هالك لا محالة، أو على هيئة ربطٍ على قلبك فتكون الثابت وسط آلاف المُنجرفين، والقائم وسط آلاف المائلين، والمُتفائل وسط آلاف المُتشائمين.

حتى أبلُغ!

كان الطريق موغلًا، تورمت قدماي من السير، ولا أدري إلى أين نسير!

علمت من أطراف الحديث أننا في طريقنا إلى رجل عالم، أتاه الله الحكمة وعلمه من لدنه علمًا.

في أعلى درجات الدهشة الأقرب مما يكون إلى أقرب نقاط الصدمة، نبيٌّ يقطع المسافات سيرًا من أجل أن يتعلم من رجل أتاه الله العلم اللدني!

في جلسة استراحة، بعدما لقينا من سفرنا نصبًا، عندما أتعبنا السير وراء الهدف، عندما أبَتِ الأقدار إلا أن ترهقنا حتى نصل، قال لي: [آتِنَا غَدَاءَنَا]، كي نقوى على المضي قُدمًا، كي نستطيع أن نصل.

أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة؟ أرأيت إذ أوينا إلى الصديق والحبيب والأخ، كان ثمتَ أمرٌ يجب عليّ أن أخبرك به، كانت أسباب النجاة تذهب بعيدًا كالسراب، حينها لم أتلمس ما تبقى فبت غارقًا في سيري ولا أدري ما هي الحالة التي كنت عليها، لكن الشيطان كان حائلًا بيني وبين أن أذكرها.

لكن العجيب هو أنها تلاشت بعدما تملكتها وظننت فيها الظنون، أنها لا ولن ترحل.

كانت مكبلةً في مِكْتَلٍ معي حيث ظفرت منه واتخذت سبيلها إلى السراب، إلى الذهاب بلا عودة.

رُبما تكون هناك أسباب النجاة أيضًا من نفس النقطة التي تلاشت فيها تتجمع لتكون هناك.

ربما أسباب النصر تجمعت حيث تاهت، وأنت لا تدري لأنك تحاول أن تتلمسها بعيدًا، في مكان خطأ.

من نفس النقطة التي تلاشت فيها أسباب النصر، وخمدت نار نزوتها، وبقي الظلام دامسًا لا شعاع نورٍ يكسر حاجزه، ستجد من هناك نافذة النور، حيثما كنت تبغي، وما كنت تسير إليه، في رحم ذلك الظلام الدامس.

عدنا أدراجنا نجر خطانا وقد أتعبنا السير دون مأوى، فقد فقدنا طعامنا، كان لا بد من ضيق أقوى من الضيق الذي سبق، كان لا بد من ضيقٍ خانق حتى نرى النور من روح تكاد تغرغر، لا بد من ضيق في أشده حتى إن تلمسنا نصرًا وجدناه حلوًا.

لا بُد أنها [لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ]، ذلك اليقين الذي ملأ نبي الله موسى، تلك الحقبة من الزمن وهو يسير يتلمس أسباب حلمه كي يصل إليه.

هذا الحلم الذي تحقق بالمثابرة والسير، الذي ما بدت أسباب تحقيقه إلا من بعد فقدان مؤنته والعدة التي جمعناها لأجله.

لا تدري ربما ما جمعته للوصول إلى حلمك الذي تريد، هو العائق الوحيد للوصول إليه، وربما أسبابه هي مغالقه، وربما ما تظنه مطيتك إلى حلمك، هو المعضل الوحيد والحائل بينك وبينه.

ربما الحائل الوحيد بينك وبين حلمك هو أنت، لن تبلغ حتى تعكف، ولن تبلغ حتى تعزم أنك لا تبرح حتى تبلغ.

ربما بقي شيء، هو أن تقول بإيمان: «لا أبرحُ حتى أبلغ حلمي وهدفي وما أسير إليه».

الأمور من زوايا أخرى

عندما يتكالب عليك الجميع، يتحدون لإسقاط حلمك الذي تراه أنت حلمًا لا بد من تحقيقه، عندما تؤمن وحدك بالفكرة وتسعى جاهدًا لتحقيقها، ولا أحد يساندك!

بعد كدٍّ وكدر، بعدما أدمى قدميك الجبل وأنت تتسلق إلى القمة البعيدة التي ما تكاد تقترب إلا ابتعدت، متشبثًا بحلمك تأبى أن تتركه إلا أن يتحقق.

سيأتيك الناصحون والحاقدون، والماكرون، سيأتيك العدو والحبيب يهمسون لك بمكرٍ أن تكفّ عن التسلق لأن الحلم بعيد، يهمسون لك أن تبقى عالقًا..

لأنه لا أحلام تتحقق!

بعد معاناة مع الطريق الطويل والشمس المحرقة، وقفنا لنتخطى الجرف، فأشار إلينا أهل السفينة أن هلموا.

لقد رأوا الصلاح في صاحبنا الجديد.

في وسط بحر من الاستضافات الكريمة، والفرح الذي لامسنا قبل أن يلامسهم، خرق صديقنا السفينة خرقًا كاد يغرقهم، خلع لوحًا من جانبها كان مسندًا إليها حاميًا من الغرق، وهي الآن عرضة للغرقِ والهلاك.

تعجب موسى من فَعلته، وما كاد ينصحه حتى ذكره أن هناك عهدًا مقطوعًا بينهما فاستسمحه موسى بأن [قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا].

لم نكن نعلم أنا وموسى ما وراء هذا التخريب بعد هذا الترحيب.

لم نكن ندرك أنها حكمة الله كيلا تسرق منهم ويشردوا، رأيناها محنة وهلاكًا، كما أن أهل السفينة أيضًا رأوها هكذا.

بعد بضعة أميال كان الأطفال يلعبون، وإذ به يختلع رأس أحدهم!

للوهلة الأولى مَن يَرَ حالة قتلٍ يَغْلِ دمه في عروقه، كما قال موسى: [أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا] {الكهف: ٧٤}

نسيَ أيضًا أن بينهما عهدًا..

فكان الفراق عقابًا لمحاولة النسيان في المرة القادمة..

تابعنا السير وكلنا تساؤلات، ما الذي يحدث بكل بساطة هكذا؟!

بعد أميال من النصَب والجوع، بلغنا قريةً، لكنْ ثَمَّتَ شيء غريب فيها.

إن أهلها أبَوا أن يضيفونا واستقبلونا شر استقبال!

إنها لقرية ظالمة، لا تقبل من يلجأ إليها..

في بحر التساؤلات الذي داهم عقولنا عن السبب وراء جشع أهل القرية وسوء أخلاقهم ودناءة تصرفاتهم، إذ به يشمر ويدعونا لنشمر معه كي نبني جدارًا فيها!

هل يعقل أن تقابل كل هذه الإساءة بكل هذا الإحسان، بأن نبني لهم هذا الجدار المائل، الذي على وشك الانهيار؟!

«إنهم أبَوا أن يضيفونا، لو شئت لطلبت منهم الأجر مقابل تعبنا في بنائه، إنهم لا يستحقون» هكذا هتف موسى في وجهه، ليقول له كُفَّ عما تفعل، فكان الجواب أن يفترقا.

لم نكن نعلم أن ما يجري وراءه حكمة الله.

لم نكن نعلم أنه لم يخرق السفينة من أجل أصحابها، ولم يقتل الغلام من أجل أن يضيق على أبويه، إذ لم يكن بينه وبينهم خلاف، لم نكن نعلم أن الجدار ليس لأهل القرية الظالمين.

كنا نرى ما نراه ظاهرًا فقط، لا ننظر بعيدًا.

لا يدرك المرء حكمة الله في الابتلاء ليكون الصبر أشد ألمًا، ولكن عواقبه تحمد عِندما يعلم المرء أن هذا الابتلاء ما هو إلا سلم إلى النجاة.

إيمانك بالفكرة يجعلك تراها من زاوية جميلة، ترى فيها النور المتسلل من جنباتها بالأمل، حيث إن الباقين لم يرَوا هذ النور، ينظرون من زواياهم الخافتة، ولا يرون إلا أنك تنقش على الماء.

كما أن أقدار الله تسير بمشيئة الله، لا نعلمها، نرى المنحة محنة والفرج ضيقًا، والبرد الهادئ نارًا محرقة، هذا لأننا نرى الأشياء من فتحات ضيقة، لا نعلم مداها ولا عواقبها إلا التي نشعر بها أو تمسّنا.

هي تلك الزاوية التي رأى منها «الخضر» هذا الذي كان يفعله بيقين تام حينما كان الجميع معترضين، أو بالأحرى لا يملكون يقينًا!

الجميع أبى فعلته وعارضه، رفضوا خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الحائط للقرية رغم أنها رفضت استضافتهم!

كانت زاويتهم محدودة، تحكمت فيها عاطفتهم، بنوا مقاديرها على ما يرونه فقط، لم ينظروا إلى حكمة الله لأنهم لم يعرفوها بعد.

بالكاد كان أصحاب السفينة يتذمرون لتلك الفعلة ولم يدركوا أنها رحمة من الله إلا بعدما وقعوا في يد الملك الظالم الذي لو كان رآها سالمةً لأخذها منهم غصبًا، ولتشردوا بعد أن يسلبهم سبيل رزقهم.

كان الأبوان في حالة حزن شديدة على فقيدهم، الطفل الذي كان لتوِّه يلعب مع الصغار، فجاء رجلٌ فقتله ورحل!

رأوا أنه قتل ظلمًا، كما رآها سيدنا موسى [شَيْئًا نُّكْرًا].

لم يعلموا أنه لو كان بقي لكان شرًّا في الأرض، ولم يدركوا حكمة الله في إرادته أن يستبدلهم [خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا].

تعجب أصحاب القرية من هذا الذي يبني لهم جدارًا على وشك أَن ينقضَّ! هنالك لم يكترثوا له، لأنهم يعلمون أنه لا فائدة منه.

لكن الله حفظ لهذين الغلامين كنزهما من القرية الظالمة، القرية التي ملأها الجشع، فلم يروا الحكمة إلا عملًا دون جدوى.

والغلامان أدركا ذلك جيدًا أن الله بمعيته وحفظه سيهيِّئ لهم الأسباب ليخرج لهم النبتة من الأرض الصلدة، وسيبعث لهم من يحفظ حقهم من الطامعين الظالمين.

كل ما يدور حولك تراه من زاويتك الصغيرة.

كل ما يحدث لك لا ترى منه سوى الجزء الملموس في حياتك.

إن أيقنت وآمنت وسلّمت أمرك لله، فسيأتيك سلام داخلي أن ما يجري لك هو بمقادير الله، بحكمة لا تعلمها ولن يكون ذلك.

ربما تكون الحكمة دنيوية فتراها وحينها تعلم أن الله لن يضيعك.

ستعلم أن كل خرقٍ حدث في حياتك ما كان إلا ليحول بينك وبين خطرٍ لم تعلم أنه سيأتي.

ستعلم أن كل شيء فقدته لم يكن هو الشيء الصحيح الذي ينبغي أن يكون لك، أن الله يأخذ منك الخبيث ليبدلك بالطيب، ولو بعد حين.

ستعلم أن الله يدبر لك وييسر لك أمورًا لم ترَها بأشخاص لا تعلمهم، ليحفظوا لك حقًّا من أيادي الظالمين، ولو اجتمعوا عليه، لتعلم أن ما لك سيأتيك لا محالة.

وربما لشيء آخر ستراه..

ولكن إن أيقنت ذلك.

شَفَق

عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دخلت على أبي (عبادة) وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصِني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، قال: يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ يقول: إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ثم قال «اكتب» فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار.

«واعلَمْ أنَّ ما أخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُن لِيُخطِئَكَ، واعلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسراً» (من حديث عبد الله بن عباس: احفظ الله يحفظك)، بعبارات مطمئنة لقلب الفتى، وبجرعة إيمانية لترسيخ مفهوم الصبر

والتصديق والظن بالله والإيمان بأن ما يحدث لنا لا بد أن يحدث، ولأننا حتمًا سنسقى بكأس الابتلاء والألم، فلم يكن بدٌّ من هذه الجرعة الإيمانية لنا وللفتى.

ومن منا لم يُسقَ من تلك الكأس، التي مرارتها تفتك الصدور وتقض المضاجع، وتبلي الأجساد، وتبدل الوجوه والملامح، وتستنزف المشاعِر، وتجفف الدموع؟! فقدتَ ما فقدت، وعانيت ما عانيت، لكنك في النهاية بشر، له ما يستطيع من الصبر قدره.

حتى الأنبياء لم يسلموا وشربوا من تلك الكأس، فسيدنا موسى الذي سار إلى الحقيقة حتى أدركه النصب من سفره الذي أمره الله به أن يلتقي بمن هو أعلم منه، فسار معه ليتعلم وليعلمنا، لكن على قدر ما عنده من العلم لم يستطع أن يتحمّل ما حدث في رحلتهم كما تعلمها جديدًا وتحفظها، وكما ذكرنا منها شيئًا مبسطًا، فما حدث كان أقوى من تقديراته وعابرًا لحدود معارفه، وما حدث منه من استعجال في السؤال وعدم الصبر هو ما يتماشى مع الطبيعة البشرية، لأن ما حدث أمامه شيئًا يرفضه العقل المجرد! فكيف يصبر على ما لم يُحِطْ به خُبرًا؟

وفي هذه الرحلة، وقفت مع حدث غريب وكأنه يصفني، ولا أعرف ما الذي أنار لي قلبي حينها لأتلمس ما فيه من عبر ومواقف.

عندما ركب سيدنا موسى والخضر عليهما السلام سفينة الأغراب، فاقتلع سيدنا الخضر منها لوحًا من الخشب ونزل، لا يهمنا الآن ما فعله أهل السفينة بعدما اكتشفوا ذلك الأمر، لكنهم بالتأكيد غضبوا لهذه الفعلة وسخطوا، ولنقُل إنهم ـ ربما ـ ودوا لو لم يقفوا لهم، ولكن ليعلمنا أمرًا أن الحكمة تأتي بعد القضاء ولأنهم مساكين يعملون في البحر، أراد الله أن يحفظ لهم سبيل عيشهم، لكن بابتلائهم فيه!

حتى يتركهم ذلك الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة غصبًا.

لكن ما يشبه حالي هي تلك الحالة التي جلس فيها الأبَوانِ الثاكلانِ يبكيان غلامهما المفقود، الذي قُتل ـ بتقديرنا البشري ـ بدم بارد، كل المقادير التي وضعت على طاولة تحقيقاتهما تشير إلى أنه لا شيء يمكن أن يبرر ما حدث لغلامهما، ولم يستطيعا اختلاع ذلك الألم الذي ولج صدريهما، ولم يدركا الحكمة من ذلك، لكن لأنهما مؤمنان تحلَّيا بالصبر، لأن إيمانهما استوجب ذلك.

جلستُ أتأمل حكمة الله في جعل غلامهما يقتل، ليضيء دربي بأن ذلك كان من أجل أن يبدلهما خيرًا منه، وليس لإيلامهما وجعلهما يكتويانِ بنار الفقد وعذابه، ولكن ما كان يخبئه الله لهما.. أجمل مما فقداه.

في كل مرة ومع كل ابتلاء ندرك أننا لا نعلم شيئًا من حكمة الله ولا ندرك، ولكننا نسخط ونغضب، ننسى أننا بشر، أعيننا ضيقة، لا تتسع إلا لأمور عينية لا تعبر عن الأمور ولا تظهرها كاملة، فنسخط لما نرى، لأننا نقدر الأشياء بتقديراتنا البشرية المحدودة، لا نسلم وجهنا لله كما أمرنا، فنحيا منغَّصي العيش.

حُسن التوكل على الله والظن بالله، هو الذي يجعلنا نحتسب كل ما يصيبنا عنده، ويجعلنا موقنين أن ما أصابنا هو الذي كان يجب أن يكون، لحكمة لا يعلمها إلا الله، ولا نعلمها ولسنا مطالبين بذلك، كل ما يطلب منا هو حسن الظن والتحلي بقليل من الصبر، أو بكثير منه إن لزم الأمر.

في المراحل الثلاث التي مر بها سيدنا الخضر وسيدنا موسى في رحلتهما، كانت الابتلاءات لأناس صالحين، والمنحة أيضًا كانت لأنه «وكان أبوهما صالحًا»، وجود ربط شديد بين الصلاح في المراحل الثلاث أمر مهم علينا الوقوف عنده كثيرًا وتأمله جيدًا.

في وقفة تعلم وترسيخ فكرة القدر المحجوب ليعلمنا الله كيف نتعامل معه وهو لا يوافق أهواءنا ولا عقولنا، وكيف نتقبله بقلوب واعية ونفوس راضية، فإما أن تكون مُبتلًى من الله لصلاحك أو مُبتلًى لتعود صالحًا كما كنت، أو كما يريد لك الله أن تكون، ومن ثم فإن الابتلاء تطهير وتنقيح، نقف أمام تمحيص الله واصطفائه لنا بصبر وثبات وعِلْمٍ بأن الله لا يظلم عباده، حاشاه.

الله لطيف بعباده، لطيف بنا إلى حد لا نعلمه، وأشد رحمة بنا من الأم على رضيعها، فأقداره دروس لنا، وتدبير سليم لأمورنا، إما بسرّاء نتلمسها، أو ضرّاء تلاشت عنا، أو لنقابله بصبر جميل، فيعاملنا برحمته وعفوه.

الأشياء الجميلة تفسدها الظنون السيئة، والحياة الكريمة تفسدها تبعات مد أعيننا إلى غيرنا، لكن من يدري، فالابتلاءات أنواع، ولا نعرف أي مبتلًى يبتليه الله أو فيما يبتليه!

لو أن أحدهم اقتلع من سفينتك لوحًا ورحل، لو أنه جاء وأخذ قلبك أو استنزفه ورحل، لا تدري لعل فعلته أنجتك من آخر كان ينتظرك في أشُدِّك وأقْوَم هيئةٍ لك حتى يأخذك إلى طريق اللارجعة، حتى يأخذك إلى فقدانَ نفسك وعالمك، لكنك تعلم أن من اختلع منك قلبك أو استنزفه أهون عليك من الذي كاد يأخذك إلى الهاوية، لكنه تركك عندما رآك تتألم.

يا صبر أيوب!

هل سقط لحم وجهك من المرض؟ هل فقدت أهلك وأولادك ولم يبقَ منهم أحد؟ هل هجرك أهل قريتك ولم يتحدث معك أحد؟ هل عانيت مشقّة أن يتجنّبك الناس لمرضٍ أصابك ولم تكن بيديك حيلة؟

عندما تخطئ ويهجرك الناس سيكون العذاب أقل من أن يهجروك دون أن تفعل شيئًا.

بمعنى آخر: عندما يتخلى عنك الجميع لسبب لم تكن لك يدٌ فيه إلا أن الله ابتلاك به ستشعر بالألم أضعافًا مضاعفة.

تعرف لم سيدنا أيوب وحده المرتبط بالصبر في أمثالنا؟ لأن معاناته كانت غريبة من نوع غير مألوف للبشر وما كان منه إلا أنه كان صابرًا محتسبًا [إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ] {ص : ٤٤}.

سيدنا أيوب الذي لم يستسلم بل لم يجهر بآلامه، كان يفضل السكون، كان وحيدًا بعدما هجره قومه وابتعد عنه أهله، وهو في أشد ضيقه وكربه وفي قمة الألم الناتج عن مرضه.

سخر الله له زوجته لتكون عونًا له كي يتجاوز محنته.

المحنة التي استمرت زمنًا تجاوز زمن العيش في الرخاء!

في أشد كربك وضيقك، يسخِّر الله لك الأسباب التي تدفعك إلى الأمام كي تتخطى هذه العوائق، ربما أحدهم ثابَر وقاتل من أجلك، أو لسان تحلى بالدعاء فلم يفارقه اسمك، أو روح قوية قادرة على تخطي ما بها دون الركون لأحد.

[إِنَّهُ أَوَّابٌ] ذلك العبد الذي صبر على مرضه مدة طويلة لم تعش أنت في ضيقك ذرةً منها.

فقط أومأتَ رأسك ساعة من الزمن قد أصابك فيها بعض التعب!

هل وقع عليك ما وقع عليه؟ هل تحمل من ألمه لتكون محطمًا يائسًا؟

هل تخلى عنك الجميع وما عادوا ينظرون إليك ولا يتقبلون منك سلامًا أو كلامًا؟

أسمى معاني الحُب

جزى اللهُ المِحن عنّا خيرًا، فهي تكشف لنا معادِن الناس.

في ليلة شديدة البرودة، صقيعها كالسيف الحاد عندما تقع على الجسد المُبتلى العارِي، إذا يدٌ تُربِّت على كتفه وتهمس له ألا تقلق فالجميعُ هنا، يبدو الأمر غريبًا إنه لا يرى أحدًا! فتتابع القول: «نعم أنا هنا معك، وأنا الجميع».

كل الأمور الجميلة التي تحدث والأهداف البعيدة التي تتحقق، بجوارها شخص مخلص يدفعك للأمام ويهمس لك: أنا معك، سِرْ ولا تقلق.

في رحلة مع المرض قاومت ولم تتخلَّ عن زوجها، أخلصت وضربت لنا أروع الأمثلة في المؤازرة.

يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ

عندما يأتيك أحدهم -قد يكون أقربهم إليك- ويأخذ قلبك ليذهب به بعيدًا ولا يعود إلا وقد برَّحه ألمًا فما عاد يستقبل إشارات الإحساس، وقد توقف عن أداء مهمته، وأنت أيضًا لم تعد تشعر به!

حزنٌ غار على قلبٍ طاهرٍ فأدماه، وعينان باكيتان حتى ابيضَّتا، وعزلة تامة عن كل من حولِه، أيُّ حبٍ طاهرٍ هذا الذي يحمله بداخله كي يبدله فلم يعد هو هو، ولم يعرف كيف يعود إلى ما كان، إنه الحبُّ الطاهر الإلهي الفطري الذي جبل عليه.

هل جلست إلى سيدنا يعقوب، مسلمًا له قلبك كي يشعره بشيء من آلامه حتى تجلس هكذا منحنيًا تشكو ما حل بك مستسلمًا؟

هل تعرف كم الأذى الذي يصيب العينين حتى تبيضَّ من الحزن؟ يا له من مصابٍ جاوز مداه الحدّ، لا يستطع بشرٌ أن يتحمّله، إلا رجل صادق مع نفسه بإيمانه ويقينه حوّل هذا الابتلاء إلى مجرد حزنٍ فقط، جعله واقفًا صلدًا متماسكًا إلا عينيه!

ربما يحدث لك شعور مماثل يومًا أن تجد نفسك مغشيًّا في رُكام الآلام تفعل ما عليك فعله من صبرٍ يصل إلى حد الاصطبار، مسلّمًا أمرك لله الواحد، تعرف أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن، في داخلك يقين أن الله ناصرك وجابِر خاطر قلبك المفطور حزنًا!

تبكي بكاء الحزن لا بكاء الندم، تسيل من عينيك دموع الشوق لا دموع الألم، تتجنب العالم خشية الفتور والصخب لا ضيقًا وهمًّا ويأسًا.

[إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ] {يوسف : ٨٦}

أشكو إلى الله ذلك الحزن الذي أصابني وما عدتُ قادرًا على تحمله، لكن الله قادر على إخراجي منه، ومن تلك الدروب المظلمة، إلى نورٍ يملؤني ويهديني.

الملك من وراء القضبان

قد تكون جالسًا لا بك ولا عليك، ويأتيك الابتلاء والاختبار دون مقدمات، فقط لأنك قد بلغت أشدك.

قد رآك أحدهم بعين البغض، أو بعين الحب، أو بعين الانتقام!

لن تشفع لك محاولات التسويغ وإخراج نفسك سالمًا، قد يجعلك هذا الامتحان أمام أصعب القرارات في حياتك فيجعلك تختار بين أن تكون مكبلًا لدى ذلك القاضي الظالم في بلد الظلم وبين أن ترضخ للظلم وتنجرف إليه.

لا حرية بلا ثمن، ولا سعادة غامرة أبدية إلا من بعد كدٍّ وكدر، خُلِقْتَ في كبَدٍ وستبقى في كبد إلى أن تُقبض وينتهي أجلك، لا أدعوك هنا لليأس فأنت بك ما يكفيك، لكن أريدك أن تعرف أنك «**لن تبلغ الحُلم حتى تلعق الصبرا**»، ولن تبلغ الذُّرَى إلا بعد مصارعات ومقاومات في الأسفلين مع الأسفلين في الدُّنا لتعلو.

سُجن سيدنا يوسف إثر حادثة اتهام زورًا وبهتانًا، ولأنه لم يلتفت وظل ثابتًا على الحق لأنه حق، لبث في سجنه بضع سنين.

لم يكن السجن حائلًا بينه وبين دعوته كي يكملها، لم يكن حاجزًا بينه وبين هدفه الذي يسعى لأجله، فكانت البداية [إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] {يوسف : ٣٧}.

لم يكن الجزاء العظيم إلا بعد بلاء عظيم، وإلا فإنه لم يكن عظيمًا يومًا.

صبَرَ سيدنا يوسف على الظلم وتمسك بقضيته حتى بلغ ما بلغ..

من خزائن الأرض إلى العرش.

من بئرٍ أبَتْ ـ بأمر الله ـ أن تبتلعه، وسجنٍ أبَى ـ بأمر الله ـ أن يكون سببًا في إضعاف همته، وابتلاء وافتراء لم يكن ـ بأمر الله ـ سببًا في عدوله عن قضيته، جعل الله له منهم أسبابًا إلى النصر والتمكين، إلى تحقيق المراد، إلى [إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ] {يوسف : ٤٠}.

ربما يأتيك النصر بعد سنواتٍ عجافٍ داهمت قلبك وحطمت فكرك وأودت بهمتك إلى طريق اللارجعة!

ربما تكون تلك السنوات ما هي إلا طريقٌ لا بد أن تسلكه كي تصل في نهايته إلى تمكينٍ ونصرٍ مبين.

لا تُسلِم قلبك إلى تلك المحنة، إلى السنوات العجاف، اجمعها واجعل منها سبيلًا، واعلم أنها كلما ضاقت اقتربت من ساعة الصفر، ساعة الوصول، ساعة البداية، أو بالأحرى بداية النهاية!

لا يكون النصر إلا بعد ضيق يبلغ من النفس مبلغه، إلا من بعد عاصفة تجُبّ ما قبلها لتُهَيِّئ قلبك ونفسك للهدوء.

الأمل من رحم اليأس

ربما أصبحت هزيلًا بعدما تلاشى حلمك ـ كما ظننت ـ وأنت تراقبه من بعيد، بعدما انقطعت جميع أسباب الوصول إليه، بعدما فقدت كل مقوماتك التي كنت تأخذ بناصيتها وأنت تسعى إليه.

لكنك لا تعلم أن ما عند الله باقٍ وأن رحمته واسعة وأن خزائنه لا تنفد!

وكأن الأمر يتطلب منك قليلًا من اليقين وكثيرًا من الصبر.

اليقين بالله بأنه لا يعجزه شيء، هو القادر على أن يجمعك وروحك بعد الشتات المبين، بعدما تبيّن لك أن التلاقي لا ولن يكون.

هل انقطع أملُك لأنك قد بلغت من الكبر عتيًّا؟ هل جرَّبت يومًا أن تنادي نداءً خفيًّا؟

لم يجفّ يومًا بحر الإيمان والأمل الجاري في ربوع قلب سيدنا «زكريا» عليه السلام، فدفعه بقوة إلى أن ينادي في الخفاء [رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا] {الأنبياء : ٨٩}.

لا تذرني فردًا لمتاعبي فتنهشني وتضعني تحت مكابسها فتدهسني ولا أقوى.

لا تذرني فردًا فلا أقوى من دون «يحيى»، الحياة تأخذني كالكتاب بقوّة، من جفاء اليأس إلى بَرْد الأمل.

هل جرَّبت أن تجمع أسباب يأسك وتضعها في سجدةٍ في لقاء خفيّ؟

لا، لأنك لم تُصَبْ مُصابَهُ أوَّلًا، ولم تتقنع بقناع أمله ويقينه ثانيًا.

رُبّما يأتيك الأمل على هيئة نداء صادق في خفاء يُحوِّل حياتك من وَحدة شاقة تملّكها اليأس إلى «يحيى» يأتيك وبين طيّاته حُلمٌ يُنادي ها أنا ذا أتحقق في سجدةٍ ودعاء صادق من القلب مع دمعة في خفاء، سأل الله حلمه فوهبه له وزاد عليه: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [المؤمنون : ٩٠].

حلمٌ كما تمناه تحقق، لأن الصدق والعزيمة لم يفارقاه قط، لم يركن إلى الزاوية ويبكِ، بل علم أنه لا طريق إلى الحلم إلا باليقين التام.

اليقين الذي جعله يبكي في سجوده ويسأل الله، اليقين الذي جعله يعلم أنه لا أحد يقدر أن يحقق له حلمه وما يتمناه إلا الله.

[كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ] {آل عمران : ٤٠}

الله يقول للحلم المبتورِ «كُن» فيكون

الله قادر على إخراج النبتة الخضراء في الأرض الصلدة الجرداء.

الله قادر على إخراج يحيى الحلم من بعد وهن العظم وشيب الرأس وبور البطن، من اللا حلم إلى تنوير البصيرة حيث النداء في الخفاء.

الله يقول لك: لتفعل ما يستوجب عليك تجاهه، ولن يكون إلا بأمره، لذا لا بد أن تتوكل عليه، وتفعل بيقين.

إنَّ اللَّهَ مَعَنَا

عندما يتملَّكُكَ اليأس وترى العالم ظلامًا دامسًا وسوادًا حالكًا، لا أحد معك، لا أحد ينصرك، عندما تشعُر بالوَحدة القاتلة، فلا تستسلم لها، ففي يوم من الأيام كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– هو المؤمن الوحيد على وجه الأرض، لكنه لم يستسلم لأنّ هدفًا يدفعه لإيمان صادق ويقين وأمل.

أمل أن يهدي الله أحبابه وأهله، أمل أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبده ولا يُشرك به شيئًا.

أمل أن يعود إلى دياره بعدما خرج منها، أمل أن يلتقي أحبابه.

أمل أن يلتقيكَ في الجنَّة، يلتقيكَ حَالِمًا، طَامِحًا، سَاعِيًا وراءَ حُلْمِكَ وهَدَفِكَ بإيمانٍ وإرادةٍ وأمل.

كيف السبيلُ إلى النجاةِ وقد اجتمع العالم على إيقافنا وإيذائنا، كيف السبيل إلى العبور نحو البر هناك وقد تجمعوا حولنا يكيدون ويخططون؟

إنها معية الله التي ستخرجنا من هنا يا أبا بكر.

سيدنا أبو بكر الصديق ـرضي الله عنهـ الذي لم يفارقه يومًا، في الرحلة المشهورة عن نبينا محمد ـصلى الله عليه وسلمـ قد وقع في قلبه خوف على حامل رسالة الأمة!

يسير يمنة ويسرة، يلتف حوله لحمايته من الأذى والقلق يخرج من عينيه يملأ وجهه:

- يا رسول الله، هل سيلحقون بنا أذًى؟
- يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

ودار الحوار بينهما هكذا، سيدنا أبو بكر يسأل والرسول الكريم يطمئنه، وكأنه يرى ما في قلبه.

كل هذا القلق والفزع الذي أصابه خوفًا على رسالته ورسالتهم جميعًا، بردت ناره وأخمدتها كلمات رسول الله {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} {التوبة : ٤٠}، بعدما دنوا منهم دُنوًّا حتى إنه «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا».

لذلك اليقين بالله شأنٌ عظيم، في بلوغ المدينة، وهزيمة الأحزاب، وملوك كسرى وقيصر، ووصول الرسالة إلينا الآن كاملةً بغير نقصان!

مهما بلغ بك العناء، وظننت أنك وحدك أنت وحلمك تائهان لا مفر من الهزيمة، فإياك أن تيأس.

اهمس لحلمك في أذنه وقل له {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

الله ناصِرنا ومعيننا.

لِنأخُذْ بالأسباب ونمضِ.

هذه القدم التي تورمت وتشققت وسالت منها الدماء.

وذلك الفك الذي شُق، وذلك البطن الذي أكل السُّم، وذلك الوجه الشريف الذي أوذي بكل أنواع الأذى، لم يكن يدفعه حبٌّ لمال أو جاه أو سلطة.

دفعته رسالة الله بهدف نزلت به ليتحقق على يده، فصبر وصابر وقاتل من أجل تحقيقه وإيصال الفكرة كما يجب أن تكون.

دفعه حبٌّ لأناس لم يرَهم وهو يعلم أنه لن يكون كذلك.

كل هذه التضحيات من سيرته العطرة تجعلك تقف منكسرًا خجولًا أمام نفسك.

لقد ضيعت حلمك تحت دعاوى زائفة وحجج باطلة لا تغني ولا تسمن، جعلت لها منك نصيبًا في إحباطك وجعلك أكثر خمولًا وأقلَّ هِمَّة.

لم يدفعك أي شيء إلى أن تسعى وراء حلمك وهدفك حتى تتورم قدماك ويسيل الدم منها!

تريد أن تصل إلى القمة والنجاح دون محاولات حقيقية بيقين وإيمان أنك ستصل إلى ما تريد.

كل محاولاتك على استحياء، محاولات اليائسين من تحقق أهدافهم.

من إنسان كان يومًا بمفرده إلى إسلام ملأ العالم وانتشر بين جموع البشر باختلاف ألسنتهم وألوانهم، سعى جاهدًا وواجه الصعاب من حصار وجوع وإيذاءٍ بدني ونفسي ولم ييأس يومًا ولم يقل إنه مستاءٌ ممّا يحدث له.

نبي الله قائدك، كافح كفاح الأبطال، بل هو الذي علمهم، ليصل إليك الإسلام كما هو الآن، فكيف ستواجهه بخذلانك لقضيتك أو لفكرتك أو لحلمك؟

أين يقينك بالله وإيمانك تجاه أهدافك وأحلامك وقضيتك؟

ألم تكُن أرض اللهِ واسعة لتحقيقها ونصرتها؟

ذاتَ رمضان

الصلاةُ اتصالُ حياة بالخالق سبحانه وتعالى، فما يُصيب هذا الاتصال من تشويش يجعل هذه الصلاة كالحياة بنكهة الموت، في جثة هامدة يدُقُّ قلبُها وتنظُر في فضاء فسيح بلا فهم، بلا وعي، بلا إدراك، بلا حُب، وكأنَّ ذلك الكائن الواقف التائه لا يعرف بين يدي من يقف.

مسكينٌ من فاتتهُ لذةُ المعرفة، ذلك الواقف بين الحياة والموت، بين الغفلة والبصيرة، فلا يعدو أن يكون كخيال مآتة محشوًّا بقش كثيف، تُحركه كلمات فيميل إلى أسفل وأعلى ويمينًا ويسارًا وناصيتهُ الفارغة تُلامسُ جبين الأرض لا تُدرك ولا تعي.

واسجد واقترب

نادى المؤذِنُ «اللهُ أكبر» فخرجت أجرُّ خُطاي إلى المسجد، علِّي أجد ضالّتي.

وقفت بين المصلين حائرًا، أتمتم بكلماتٍ أحفظها ولا أدري أمِنْ قلبي هي أمْ مِن فمي، ولم تجاوز حنجرتي بعد!

ركعتُ وسجدتُ وانتهيتُ من صلاتي.

خرجت منها كما دخلت.

لا فائدة.

كلُّ شيءٍ بقي ـ كما هو ـ متأزمًا مُثبِّطًا!

جلست أتأمل وجوه المُصلّين..

لسان حالي يقول: يا الله ما أقواكم! وما أجملكُم! وما أجمل روحكم الطيّبة التي تنبعثُ من وجوهِكم!

ماذا فعلتُم كي تضيء تلك الوجوه؟

وبينما أبحرُ بين أمواج تساؤلاتي إذا صوتٌ ينادي: يا عباد الله بعد أداء السُّنة سيكون درسٌ لفضيلة الشيخ.

جلست مليًّا وأنا لا أدري أجيبه أم أنصرف دون جدوى؟

فرغ المُصلون وارتقى الشيخُ كُرسيه الذي يستقر بجوار المنبر وبدأ بقول الله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ] {المؤمنون : ١، ٢}، نزلت هذه الآيات بردًا على قلبي فشعرت بها كما لو أنها تنزلت لتوِّها من جديد.

نعم أسمعها كثيرًا وأحفظها.

لم يكن قلبي حاضرًا كهذه المرة لتُحدِث فارقًا كبيرًا هكذا.

أو رُبما كان الشيخ يقصدني؟

بدأ يقول ويقول وأنا أسمع وكأنما يقصدني بالفعل، فالكلمات موجّهة إلى قلبي من قوسٍ لا يخطئ راميه قط!

وضعتُ رأسي بين رُكبتي، أجهشتُ بالبُكاء، وسط تساؤلاتي: أين أنا؟ وكيف كنتُ؟ ولمَ قصّرت هكذا؟

مرّ من العُمر كثيرٌ وسط زحام التيه واحتضان الآلام والكبوات والحُفر، اليوم يعقبه الآخر دون فائدة!

صراعات هُنا وهناك.

وأنا، أين؟ تائهٌ بين رُكام الأيام ولا أستطيعُ انتشال نفسي.

لم أكُن أعرف كيفية انتشالها، وإن صح التعبير أنا لم أكُن أعرف أنَّ هناك عالمًا أفضل من الذي أعيشهُ، عالمًا في كنف الله وَكَلَئه، عالمًا نقيًّا تستطيع البُكاء الذي يعقبهُ راحة، راحة لا يعرفها إلا من شعر بها، كما أشعُر بها الآن.

كان الحديث طوال الدرس عن الفلاح، فلاح المؤمنين الخاشعينَ في صلاتهم، لم أكن أعرف أن الفلاح سببه الخشوع في الصلاة لا في الصلاة وحسب!

كنتُ أصلي لأداء فريضة الصلاة كما يفعلون، ولكن من الواضح أن العُمق في الصلاة كان أكبر مما كنت أتخيّل.

وقعت كلماته على صدري، وكأني لا أعرفها رُغم أني أسمعها كثيرًا وأرددها، لكن يبدو أني كنتُ أرددها من قبل لمجرد التكرار فقط لا من أجل التدبر والوصول إلى أعماق القلب.

تحدث مطولًا عن أشياء الْتَمَسْتُها داخلي، شعرت كأنني المقصود بهذا الكلام، كأني المقصر وحدي في هذا الجمع.

جلست في آخر الصفوف، الجميع متراصون كالبُنيان، شعورهم مبللة من أثر الوضوء، نور الوجه يشع يكاد يملأ العالم ضياءً لو أخفقت أنواره.

جلستُ أحدق بهم كأنني أسمع نبضات قلوبهم تذكُر الله بدقات منتظمة تعودت الصمت والخشوع داخل هذا الحرم والمكان المقدس.

منهم من وقف يصلي، ومنهم من فرغ من صلاته وجلس يدعو، تمنيت لو أن لي آذانًا تتلصص لأسمع بمَ يتمتم هذا، ولِمَ يبكي هكذا بين راحتيه!

أنظر هناك، فأجد شيخًا قد هرب من قيود الحياة فارًّا إلى هنا، حيث الراحة، أجده مسرورًا يجلس وقد بدت عليه علامات الشجن.

أحزينٌ هو أم في غاية عالية من العبادة جعلته يبدو هكذا؟

أهذا هو الخشوع؟

يبدو أنه مزج بين شعور أن تكون في قمة السعادة والخشوع معًا.

وآخر يدخل من الباب كأن أحدًا يلحق به ليُلحِق به أذى، ويتضح أنه يفر أيضًا لكن إلى ما تعود أن يفر إليه، إلى ما يشغله منذ الصغر.

عندما ولج باب المسجد بدت على ملامحه السعادة بعد نفسٍ عميق أخذه فور دخوله، وقف يستقبل القبلة ليبدأ في الانغماسٍ بين يدي الله وهو يعلم أنه ما إن فرغ من الركعتين إلا وقد أزاح هذا العبء عن صدره، وقد أثلجه.

بينما أنا جالس أحدق بهم إذ به يلوح أمامي مشيرًا إليَّ بقارورة عطر يريد أن يعطيني.

مددت يدي لذلك الصبي الجميل الذي جملته تلك الركعتان اللتان حفظهما وأداهما لتوّه فحفظتاه.

كما أراه الآن في هذا الشيخ الذي يجلس أمامي.

بعلم أو بلا علم، يرجو ذلك الطفل أن يكون شابًّا نشأ في عبادة اللهً ليستظل تحت عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، لينتقل بعدها إلى مرحلة ذلك الذي دخل منذ قليل فارًّا من شبح الدنيا الذي كان يجري وراءه ليُلحق به الأذى ليكون قد كمّل هذا الشق الثاني «ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد».

بين كُل هؤلاء أتساءل: لمَ لمْ أكُن هنا منذ الصِّغر؟

نعم، لقد كنت هنا بالفعل، ولكن لمَ لمْ أشعر بما أشعر به الآن منذ البداية؟

في الحقيقة لا أدري.

نادى المؤذن لإقامة الصلاة، الجميع يتركون ما بأيديهم.

ذلك الصبي يحمل المصاحف من الشيوخ في آخر المسجد ليضعها في مكانها، وذلك الشيخ الكبير الذي يأبى إلا أن يصلي واقفًا، ولا أدري كيف، الجميع يتراصون صفوفًا، وددت لو أن هناك ما يرصد لي هذه اللحظة المشهودة.

كنت أصلي دائمًا ولكني أراها عادية، لم أتحسسْها ولا أشعر بجمالها كما أشعر به الآن، **ولكن ما هذا الشعور الذي وطئني فجأة وكأنه اجتاح كلي فجعلني أشعر بجمال تفاصيل التفاصيل؟**

ربما لأني لم أكُن حاضرًا حضورًا تامًّا في تلك المرات، أو لأنني لم أكن أبادر دائمًا فأتخلف عن تلك اللحظة دون علم مني، أو أني أتركهم يصلون لأذهب متأخرًا فلم أكن أعرف أن هناك من الجمال أشياءَ لا تقدر بثمن.

سيعلم المُهتمون بالتفاصيل أن للّحظات لحظاتٍ أخرى تفضِّلُها، ولكل لحظة من اللحظات الأخرى تفاصيل مستقلة، ولكل تفصيلة من هذه التفاصيل بحرٌ واسع من تفاصيلها.

إنها الأشياء البسيطة التي لا نراها، ويراها غيرنا على أنها ذات قيمة وأهمية.

تراصَّ الجميع أخيرًا ووقفوا ينتظرون الإمام وقد فرغ أخيرًا من أداء ركعتي السنة، يقف لينبّه على ما يجب أن يكون أو نكون عليه في الصلاة.

منذ الصغر وأنا أحضر الصلوات مع أبي، وكان إمامًا وبعد كل إقامة أسمعه يقول: «استقيموا يرحمكم الله»، لم أعرف يومًا أنه يقصد بالاستقامة شيئًا آخر غير أن «الكتف في الكتف» وبهذا نستقيم ويكون قد استوى الصف.

لم أعرف أنني يجب أن أكون مستقيمًا بداخلي لكيلا أعوج خارجًا، لم أعرف أنني المقصود بمفردي وليس الجميع، ولم أعرف أيضًا أنني لو لم أستقم فلن أُؤَثِّر في استقامة أحدهم.

أيضًا كأنني أسمع لأول مرة في حياتي «استقيموا يرحمكم الله» ولا أعرف ماذا كان يقصد؟ وهل يعنيني -أيضًا- أنا خاصةً بهذا الكلام؟

كيف عرف أننا يجب أن نستقيم؟ كيف عرف أننا جميعًا يجب أن نستقيم لنستوي لا على مستوى الصف فقط بل على مستوى الصلاة ككل.

هل اطَّلع على شيء من أسرارنا، فوجدنا نريد من يذكّرنا قبل كل صلاة أنه يجب أن نستقيم حقًّا؟ هل لو لم نستقِمْ سيظلُّ يكررها قبل كل صلاة؟ ماذا لو لم أستقم وأنا واقف؟ أسوف أسقط واقفًا أيضًا أم سوف أتساقط أشلاءً؟

للكلمة وقع مرير على صدري، شعرت كأنني لا بد أن أستقيم، وإلا سأتلاشى وسأغدو بلا ثمن وبلا شيء، يجب أن أستقيم كيلا أسقط قطعًا لا يُمكنها التعرف على بعضها مرةً ثانية.

وكأنه كان يقصِد أنني لا بُد أن أستقيم الآن وأحافظ على تلك الاستقامة حتى موعد الصلاة التالي ليُذكرني أن أستقيم ثانيةً، وكأن الاستقامة شيء أساسي لا بُد منه.

كبّر الإمام تكبيرة الإحرام، وقعت على أذني كأني أسمعُها للمرة الأولى، نعم لها صدى صوت في أذنى جعلني ألتمسها لأول مرة رُغم أني سمعتها كثيرًا وحضرت لها تفاسير.

لم أنتهِ من رفع يدي والتكبير حتى وجدت نفسي أقف متصلبًا، ثمتَ شيء ما يريدني أن أكون أكثر صلابة الآن، لا أدري لمَ، ولكن كل ما يدور في مخيلتي أني يجب أن أكون حاضرًا بكل ما أملك وكيفما أستطيع.

في الصلاة يجب أن تكون حاضرًا حضورًا تامًّا، يقظًا لأدائها على الوجه الصحيح كما ينبغي، بقلبك وعقلك كما أنت حاضرٌ بجسدك، تُعايش هذه الحياة فيها، تجعلُها مأواك لإفراغ ما بداخلك، للبوح بكُل ما لديك من متاعب لتخرُج صافيَ الذهن مُسترخيًا على أهبة الاستعداد للإحسان فيما أنت مُيسرٌ له، لإتقانه، ومن ثم العودة مرةً أُخرى لشِحنة جديدة من صلاة جديدة، في وقتها.

ما بين التكبيرة والركوع عالم آخر مليء بالانجذاب نحو كل شيء، يبدأ من موضع السجود حيث النظر هناك، وينتهي عند تكبيرة الركوع التي تأخذك إلى العالم الذي يليق بك، يليق بعبد يعلم أنه عبد.

ركعنا وركعوا جميعًا معلنين الخضوع التام والانكسار والذل لله وحده، الانكسار الذي يقويك عندما تخرج، والذل الذي يجعلك عزيزًا عندما ترفع رأسك.

في أفضل حالات العبودية لله العظيم سبحنا بحمده مقرّين أننا خاضعون لله ولأوامره ولنواهيه.

لم أكن أنظر إلى الركوع بهذه الطريقة من قبل، ثَمَّتَ أمرٌ جعلني أمعن النظر وأنا على هذه الهيئة إلى كيفية فعل هذا ثم الرضا عنه!

كيف للمرء أن يركع ويخضع ذليلًا، ليخرج قويًّا عزيزًا بين الناس إلا إن كان هذا الركوع لله وفي بيت الله؟!

ثُم قال: «سَمِع اللهُ لمن حمده»، رفعتُ رأسي وأنا في ذهولٍ كأني أسمعُها لأول مرة! ها هو يقول إن الله يسمع من يحمَدهُ الآن، كأنهُ يقول الآن يجب أن تَحمد الله كما يليق بجلاله.

عِندما سُئل سيدنا موسى عن عصاه: [قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ] {طه : ١٨}.

علِم أن الله يسمعه فأحسن في الحديث غيرَ أنه زاد وزاد ولم يقُل هي عصاي وسكت، هذا لأنّه أيقنَ أن الله السميع يسمعُ كلماته.

تعلمت أنهُ يجب أن أقف حتى أطمئنَّ واقِفًا وأنك الله السميع تسمعُني وأنا أحمَدك، فلا بُد أن يكونَ الحمدُ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.

حمدًا يليقُ بجلالِك.

سجدنا..

دائمًا ما كنت أسجد ولكنه سجودٌ عاديٌّ كما تعلمته في الصغر، ولكن هذا السجود كان غير الذي أعرف، سجودًا من عالم آخر! وجدتُ نفسي أبكي بكاءً مريرًا وأتمنى لو امتد زمن السجدة لأبعد من هذا.

تلمست هذا فيهم أيضًا!

الدعوات في السجود كانت مُختلفة تمامًا، كُلها غير المُعتاد، الكُل دعا بدعواتٍ جرت على ألسنتهم -ربما- لأول مرة، دعواتٍ لم تُتوقع لأشخاصٍ غير مُتوقعين، كأن الجميع أنا! كأن الجميع يعلم ما أعلم ويشعر بما أشعر.

الجميع بعد السجدة الأولى ينتظرون التكبيرة بشوق، نعم لقد سجدوا ولكنهم لم يُفرِغوا كُل ما بجَعبتِهم. سقطوا جميعًا إلى الأرض مُسرعين كأنهم في سِباق، الأرضُ تستقبل الأُمنيات، والدعوات تنهال عليها، علت أصوات الدموع، الكُل يُهَمهِمُ بكلمات غير مفهومة، قام الإمام من السجود ولكِنّ قيامهم بدا ثقيلًا، ودُّوا لو يصرُخون لم نشبع من الاقتراب بعد.

قاموا أخيرًا وهُم يُرددون:

«اللهم استجب، اللهُم حقِّقْ».

تكرر هذا المشهد في الركعة الثانية كما لو كان إعادة لنفس الشيء الذي حدث مع الركعة الأولى.

جلسنا حيث التشهد الأخير، التشهد يخرج من العمق ليس من الشفتين فقط، ثَمَّتَ شيء آخر يجعلني أتمسك بكل حرف يخرج وأنا أقول له: **«لا تخرج إلا وأنت في أبهى صورك، لا تَخْطُ من بوابة الشفاه إلا وأنت متزيّن، متطيب كما يليق بمَن أنت ذاهب إليه».**

هل تعرف معنى أن تجالس حبيبًا، وترى الوقت قد داهمك وما يزال لديك كثيرٌ من البوح، تريد أن تبقى أكثر وأكثر، تريد أن تظهر له مزيدًا من الحب والانكسار والخضوع، تريد أن تبقى بين يديه لأنك لا ترى نفسك خارج هذا؟

هل تعرف معنى أن تنتهي من شيء تتمنى أن تعود إليه في أقرب وقت بأسرع ما يمكن، وبكل ما أوتيت من قوة، لتبوح له مرة أخرى بما حدث في الفترة من آخر لقاء؟!

هذا الحب الذي يرتقي بك وترتقي به، يجعلك شامخًا بعد انكسار، عزيزًا بعد ذل، إنه حب الله، حب أن تكون عبدًا له، يفرح عند لقائك فيجعلك تفرح ولا تتمنى الذهاب، فيمتد هذا الفرح من بعد آخر لقاء إلى اللقاء التالي.

كأنه الحب الذي ينمو بالداخل في كل مرة، يهتف فيك أنه لا منجًى ولا ملجأ غير هذا، لا تغِبْ طويلًا، لا تتأخر، فهناك موعد ولقاء وبوحٍ كثير، إفراغ يُشعرك بالسعادة التي لا تنفد والراحة التي تمتد طويلًا.

ذلك الحب الذي يصرخ بداخلك قائلًا: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}.

شيءٌ غريبٌ يدفعُني للأمام، لعله الهواء، أو السكون، ولعله النقاء الذي يملأُ المكان، السكينة عمّت كُل مُتحرِكٍ في أرجاء المسجد فسكّنته حتى الأطفال، كانوا طيّبين هادئين مُصلين، بدَوْا في صلاتِهم كما لو كانوا يُتقِنونها منذ الصِغر حتى سن السبعين.

والشيخ الهرِم؟ يقِفُ خاشِعًا لا يأبَه لِكَدَر!

الشيخ «إسماعيل» أو كما سمّيته أنا، هو رجلٌ مُسنٌّ في مُنتصف الثمانينيات إن لم يكُن في التسعينيات، من بلاد ما وراء النهر، لا ينطِقُ بالعربية، ممسكٌ في يدهِ طَوال الوقت قطعةً من قُماش ليمسحِ بها لُعابه السائل من فمه المسكين الذي فقد كُل أدوات التحكّم إلا من بقايا سنٍّ تظهرُ في الجوف عند تبسُّمه.

لا أُخفي عليكُم أنَّ هذه السِّنَّ الضّاحكة دائمًا ما تظهر لكثرة تبسُّمه، لكن في هذه المرة سمِعتُه يبكي بُكاءَ صَبٍّ أرّقتْه مرارة الفراق.

ها هو يُعلّمني درسًا في الصمود، أبت وقفته طوال ساعات الصلاة إلا أن تجعلني في حَيرة من أمري، أتساءل، كيف أتأوَّه أنا وهو بجواري صُلْبٌ لا يتحرك لهُ ساكن؟! في القيام واقفٌ كأسدٍ جائع لا يمل من انتظار فريسته، وفي الركوع راكعٌ يُسبّح بعظمة الله لا يمَل، وفي السجودِ ذليلٌ يبكي بحُرقة عكس ما عهدناهُ باسمًا في غير الصلاة، متشبثٌ بالأرض مؤملاً اتساعَ وقت السجدة حتى يبوحَ ويبوح.

في السجود سمِعتُ همهماته وهو يدعو، لهجته غريبة، لم أفهم شيئًا من دعواته، كل ما أفهمه هو لغة البُكاء المرير.

علّ الصدأ أصابَ قلبه فأراد أن يجلوه، علّها أُمنيةٌ يطلُبها من الله، ولكن يطلُبها بصدقٍ وجِدّ، عزيمته جعلتهُ مُتشبثًا بأرضٍ آوته في سجدتهِ ليُفرغ ما فيه من أمانيَّ مُعلقةٍ في أستار قلبهِ على شمّاعة أحلامه في أولوياته.

ظل يبكي بِحُرقةٍ حتى شد انتباهي وجعلني أنسى نفسي في دُعائي وأدعو له: يا رب يا جابِر الخواطر، اُجْبُر خاطره واربِط على قلبه.

هذا المثال المُتشبث بذاكرتي الذي لا يكاد يُفارقني هو بمثابة رادع في كُل مرة أقوم فيها إلى الصلاة مُتكاسلًا، ربما هو الرسالة التي جاءتني عندما دعوت الله يومًا.

المعنى الحقيقي الحي لـ«حفظناها في الصغر، فحفظتنا في الكبر».

يا أيُّها الشيخ الهرِم ما الذي كان بينك وبين الله يجعلك تقوى على كل هذا الذي لا يقوى عليه كثيرٌ منا ممن هم في قوة الشباب عند بلوغ الأشُدّ؟

مِنَّا من يجلس ومِنَّا من يقف على مضض.

يا أيُها الشيخ الهرِم ماذا فعلت بي لأذكُرك في كل وقفاتي كي تجعلني أكثر تمسُّكا وخضوعًا في محاولاتٍ منّي أن أكون أفضل منك، في وقوفي أو أسير في ركبك فأكون قريبًا محاذيًا لك، ولكني مُقِرٌّ أن كل محاولاتي باءت بالفشل.

يا أيُها الشيخ الهرِم إن ما لديك من قوة ظاهرة لا تجعلك تتحمل كل هذا إنما هي قوة داخلية وهبها الله لك، من ينظرك من بعيد يخيل إليه أنك تحتاج إلى مساعدته لتقف، ولكن عندما يقترب يعلم علم اليقين أنه هو من يحتاج لمساعدتك ليقف.

انتهت الصلاة، وبقي من بقي وخرج من خرج وأنا في زاوية من زوايا المسجد، أتفقدهم واحدًا تلو الآخر، أرى في وجوههم سعادةً تكاد من شدتها تتطاير من وجوههم.

ثغورهم باسمة وكأن أمانيهم بالفعل تحققت.

الكُل بدا منكسرًا من الداخل، ظهرت علامة هذا الانكسار على وجُوههم وفي مُصافحاتهم لبعضهِم، وكأنهم يتمنَّوْن لبعضهم أن يُحقق اللهُ أمانيَّهم بسلام، وأن يرزُقهم ثواب هذه الصلاة رُغم تقصيرهم.

يا الله يا كريم، آدم عليّ لذة هذا الشعور، وارزقني الإخلاص، وقربني كلما انجرفتُ بعيدًا.

ولكنك لم ينتهِ بعد.

فهرس

إهداء	٥
إهداء خاص	٧
إنعاش الإنـــــــ عاش	١١
أشلاء! (دون دماء)	١٥
بلا مقدمة	١٧
ولِروحِكَ عليكَ حقٌ	٢٠
أنينٌ يغزو قلبي	٢٢
لا ترحلي	٢٧
حين تحترق الفراشات	٣١
ألم الوهج	٣٤
خَواء	٣٦

ما تبقى لك ٣٨
أنين، على لسان القلب! ٤٠
حالة خوار ٤٢
اشبعوا فالموتُ يخطف ٤٤
فهل تعود، وتُزيحُ الحُزنَ عنّي؟ ٤٥
مائل منحدر ٤٩
رفقًا بهِ ٥١
الله لقلبك المتماسك ٥٢
حينٌ من الدّهر ٥٤

هل كُنت هُناك؟ ٦١

في السفينة؟ ٦٥
في ظلماتٍ ثلاث ٦٧
هذا ربي هذا أكبر! ٦٩
قدَم الرضيع ٧٢
أطغى الطواغيت ٧٥
حتى أبلُغ! ٧٨

الأمور من زوايا أخرى ٨١
شَفَق ٨٨
يا صبر أيوب! ٩٣
أسمى معاني الحُب ٩٥
يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ٩٦
الملك من وراء القضبان ٩٨
الأمل من رحم اليأس ١٠١
إنَّ اللَّهَ مَعَنَا ١٠٤
ذاتَ رمضان ١٠٩
واسجد واقترب ١١٣